كامل محجوب

تلك الأيام

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

بسم الله الرحمن الرحيم

● ● ● ● ● ● ● ●

إهـــــداء

اليكم يا ابنائى، اهدى هذا الجهد، الذى يحكى تجربة ابيكم خلال سنوات من عمره انقضت.. وعبركم اهديه لكل ابناء وبنات هذا الوطن، الذى من اجـل خيره ووحـدة وتقـدم اهله ـ كانت كل صفحـة من صفحات تلك التجربة، وبكل معانى التجرد والاخلاص... ووعدى لكم، وعبركم لكل ابناء وبنات السودان ان اظل على هذا المبدأ ما بقى في جسمى دفء الحياة.

أبوكم

كامـــل محجـــوب

الفصل الأول

الحياة فى الريف

منطقة البركل كريمة مروى
الحركة الطائفية
المراحل التعليمية
خلاوى القرآن
التعليم الأولى ..

مدخـــل

كثير من الاصدقاء، طلبوا منى، بالحاح، تسجيل تجربتى في الحياة ، اعتقادا منهم بان هذا الجهد سيكون ذا قيمة وظللت لعدة سنوات مترددا في الاستجابة لهذا الطلب، رغم قناعتى بأن التجربة العامة التى عشتها تجربة متعددة الجوانب بدأت مشوارها في عمر مبكر.. لكن شعورى بان الذى يقدم على تسجيـل تجـربتـه في الحياة، لابد ان يكون دافعه، نوعا من الشعور بالاهمية الذاتيه، كان السبب في ترددى ـ ذلك اننى ـ حقيقة ـ لا اشعر بهذه الاهميـة الذاتية.. ولكن بغض النظر عن الدافع فان بعض التجارب التى اطلعنـا عليها، كانت اعمالا نافعه، جعلتنا نلم بظروف وواقع من سجلوها، ونستفيـد من تجاربهم. فتجربة الانسان العامة، ليست في الواقع ملكا له ولكنها يجب ان تكون، ملكا للاجيال اللاحقه ـ ليستمر بذلك عطاء الانسان العام من بعده، وبهذا تتصل حلقات المعرفة الانسانية.

وعـلى هذا الاساس، قررت ان ابدأ الكتابة، بعدان تهيأت لى ظروف مناسبة اتاحت لى قدرا لا بأس به من الوقت الملائم.. اما ماذا ساكتب فهو واضح تماما في ذهنى من زاوية التسلسل التاريخى للاحداث.. فلا زلت اذكر تفاصيل التفاصيل ـ ولكن الامر ليس سردا لسيرة ذاتية، ولا يجب ان يكون... لانه في هذه الحالة، يفقد العمل قيمته التاريخية كتجربة عامة، ويصبح مجرد حكاية ممتعة على احسن الفروض..

ان الذى فكرت فيه، كاطار لهذا العمل هو الا يكون تجربة فرد معزول، ولكن يجب ان يكون تجربة هذا الفرد كعنصر في جماعة، وعضو في المجتمع.. والامر بهذا الفهم، يحتاج لجهد كبير دون شك. وسأبذل قصارى ما استطيع ولا يكلف الله نفسا الا وسعها.

وغاية قصدى وكل املى ان يحالفنى التوفيق لانجاز عمل يكون مفيدا ونافعا للناس ويتصل به مشوار حياتى في العمل العام خدمة لقضايا الوطن والمواطنين.

وكلمـة اخيرة لا بد منها ف هذا المدخل ـ وانا اسجل هذه التجربة، قصدت عن عمد ان اعبر عن آرائى فى كل مرحلة من مراحلها، حسبما كانت قنـاعاتى وقتذاك. وذلك حرصا منى، علىإبراز دورى في التجربة المعنية،في صورته الحقيقية دونما تزييف، وكان طبيعيا فى هذه الفترة الزمنية الطويلة التى غطتها هذه التجربة ان تكون القناعات والافكار، عرضه للتغيير. ولكن ظل الدافع في كل الاحوال واحدا ـ وهو الالتزام الوطنى والحرص على ان يمتلك الانســان زمام امره بنفسه بعيدا عن الارتزاق والعمالة واقفاص العقائدية السياسية المتحجرة.

المؤلف

الفصل الاول

منطقة البركل كريمة مروى

الحياة في الريف

البركل واحدة من القرى العديدة المنتشرة على ضفاف نهر النيل، في المديرية الشمالية.. وان كان لها ما يميزها فهو موقعها في قلب منطقة كانت مركزا لحضارة قديمة، وقربها من بلدة كريمة، التى ينتهى عندها خط السكة الحديد، الذى يربط هذا الجزء من البلاد ببقية انحاء القطر.. ويبدأ منها خط الملاحة النهرية، المتجه شمالا نحو بلدة دنقلا، الامر الذى جعل من بلدة كريمة، سوقا رئيسيا لهذه المنطقة ومنطقة اشعاع حضارى. ثم قرب قرية البركل هذه ايضا من مدينة مروى التى كانت عاصمة ادارية لهذا الاقليم الشمالى في فترة من فترات الحكم الاستعمارى. وظلت فيما بعد تحتفظ بقدر من الاهمية كمركز ادارى ايضا، وموقع للخدمات الصحية والتعليمية.. فقد كان بها المستشفى الوحيد والمدرسة الاولية الوحيدة للبنين لكل هذه المنطقة الشاسعة الممتدة من دنقلا حتى بربر بجانب مدرسة اولية للبنين بكريمة..

اعتمد مواطنو قرية البركل ـ كغيرهم من المواطنين في هذه المنطقة على الزراعة بالطريقة التقليدية بنظام السواقى.. واصبحت المساحة التى يغطيها الرى بالساقية، هى المكان السكنى لعدد من المواطنين، الذين تجمعهم روابط اسرية. واصبحت تسمى الساقية باسم الاسرة، او باسم الصمد، الذى هو كبير الاسرة وزعيمها.. لم تكن مساحات السواقى متساوية، ولهذا فقد كان يختلف نصيب الفرد من ساقية لاخرى.. كما يختلف بفعل الميراث نصيب الافراد في الساقية الواحدة.. ولكن عموما فان مساحات السواقى صغيرة، وتبع ذلك صغر المساحات التى يمتلكها الافراد.. اضافة الى عامل الميراث، الذى جعل هذه المساحات، في كثير من الاحيان ـ غير قابلة للاستثمار المجزى ولكن مع كل ذلك، فان مقدرة اهلنا في القرية، ومعرفتهم باصول الزراعة وتعاونهم جعلهم ينتجون افضل ما يمكن، من هذه المساحت الصغيرة.. فهم

يكتفون ذاتيا من الحبوب والخضر والفاكهة والالبان والسمن والزيت والبيض والاسرة والبروش وعلف الحيوانات كما هم مكتفون ذاتيا بمواد بناء مساكنهم وصناعة سواقيهم وصيانتها، وصناعة المراكب الشراعية. ومحصولهم النقدى الذى يعتمدون عليه، هو التمر، من اشجار النخيل، التى يولونها عناية فائقة.. كما يعتمدون على ما يجود به ابناؤهم المغتربون داخل البلاد او في مصر. انهم ينظمون زراعتهم بطريقة بسيطة وجيدة ـ فلكل اسرة في الساقية، موعد خاص، وفترة زمنية محددة،لرى زراعتها. فلكل ثور او اكثر يستعمل في جر الساقية ـ ويقوم بهذه العملية الصغار من الاولاد او البنات، بينما يقوم الكبار بالرى، وفلاحة الارض الشاقة والتى تحتاج للخبرة وحسن التصرف..

تبدأ الساقية الدوران كل يوم عند الفجر، وتنتهى في منتصف النهار. وتسمى هذه الفترة (الفجراوى) وتبدأ الفترة الثانية من بعد الظهر الى قرب مغيب الشمس، وتسمى (العشاوى).. وهناك فترة فوق العادة في الحالات الطارئة، وبعد مغيب الشمس تسمى (الكسوارى) ـ وبهذه الطريقة يستطيع الجميع رى محصولاتهم.. إنهم يعرفون جيدا ـ ونتيجة للخبرة الطويلة المتوارثة ـ مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة، وكيفية العناية بهذه المحاصيل، ومواعيد ريها، وطرق تسميدها، وبامكاناتهم الذاتية.. ويعرف اهلنا كيف يستفيدون من الارض، التى يغطيها الفيضان (الجروف).. فيزرعونها بعد انحسار النيل بمحاصيل متنوعة ـ كالفول المصرى والسمسم والقطن واللوبيا. مستفيدين من خصوبة الارض التى غطاها النيل بالطمى ورواها فهى لا تحتاج لرى صناعى كما كان اهلنا يستفيدون من أراضى الجزر التى تظهر بعد انحسار الفيضان وقت التحاريق، فيزرعونا بالبطيخ والشمام والعجور..

لقد كان التعاون ركيزة متينة يقوم عليها كيان اهلنا في القرية ـ فبالنفير والفزع يصنع أهلنا سواقيهم ويصونونها، ويحفرون الآبار السطحية الكبيرة (مترات) في الاراضى التى لا تصلها مياه النيل، ويشيدون فوقها سواقيهم لرى تلك الاراضى. وبالفزع ايضا يجنون محاصيلهم من قمح وتمر وغيرها ويبنون مساكنهم ويعرشونها.. وكمثال فريد لهذا التعاون والتكافل الاجتماعى، فانه اذا تعرض ثور احدهم للسقوط اثناء جر الساقية فانكسرت رجله مثلا ـ كما كان يحدث احيانا ـ فانهم يذبحون ذلك الثور، ويقسمون لحمه على جميع الاسر بالساقية بالتساوى ويجمعون منهم مقابل ذلك المال الذى يشترون به الثور البديل لصاحبه.. وفي مناسبات الافراح والاحزان، يشدون ازر بعضهم البعض.. وحتى عندما يعود الابن الغائب لا تقتصر هداياه على افراد بيته، بل تمتد لاقاربه بالساقية. وعندما يقدم الشاب على الزواج فان هداياه تعم الاقربين من الاهل والجيرة بهذه المناسبة، كل حسب امكاناته وظروفه.

وعلى ايام طفولتنا، اذكر ان كل كبير في القرية رجلا كان ام امراة يستطيع ان يكلفنا باى عمل فى مقدورنا ان ننجزه.. وان يعاقبنا اذا ما اخطأنا دون ان يثير ذلك غضب او احتجاج ذوينا.. بل اننى اذكر اننا كنا اكثر استعدادا ونشاطا للاستجابة لما يطلب منا آخرون غير ذوينا الاقربين لقد كنا ابناء الجميع، وكان الجميع من الكبار آباءنا وامهاتنا، في ذلك المجتمع القروى البسيط الجميل..

وعلى ايامنا كان عيبا ان يشترى احدهم اللبن او الخضار او خروف الاضحية. والذى يفعل هذا يكون محل استنكار الجميع، بحسبانه خاملا وكسولا - وفي كل بيت كنت تجد مخازن الحبوب والتمر (القساسيب) ليكون فيها من المؤونة من الحبوب والتمر ما يكفى الاسرة العام بطوله..

كانت مناسبات الاعياد والزواج وختان الابناء تمثل مهرجانات افراح عظيمة في القرية . يهتم بها اهلونا ايما اهتمام - فالمرح والبهجة تعم الجميع وتستغل في ذلك كل ايام العيد بلا نقصان.. اما مناسبات الزواج فحدث ولا حرج فقبل عقد القران بايام عديده، تقام ليالى الغناء والرقص من المغيب، وحتى الساعات الاولى من الصباح. وهى ليال يؤمها جميع سكان القرية، كبارا وصغارا، رجالا ونساء، دون بطاقات دعوة - بل ان العديد من شبان القرى المجاورة يحضرون ايضا من مسافات بعيدة، يهديهم لمكان الاحتفال، في هدأة الليل صوت الطنبور والدليب وضرب الاكف، في جو القرية الهادىء ذلك وما اجمله وما اروعة من صوت!

ولا انسى هنا ليالى (المديح) فقد كنا نقطع ليلا المسافات البعيدة عندما نستمع في سكون الليل وبعد العشاء، صوت اولاد حاج الماحى - فنتجه صوب الجهة التى ياتى منها ذلك الصوت، وعندما نصل نجد اننا قطعنا مسافة بعيدة ونبقى في حلقة المديح الى نهايتها، قرب انبلاج نور الصباح، ونعود بعد ذلك نعدو عدوا، لا نشعر بتعب او ارهاق..

وفي الحقيقة، فقد كانت ليالينا كلها سرورا وبهجة، لاسيما الليال المقمرة - ولو انه يصعب التمييز بينها وبين غيرها من الليال! ذلك ان اشجار النخيل الباسقة الكثيفة تكاد تحجب عنا تماما ضوء القمر فلا نستمتع بذلك الا على رمال الجزر، التى كنا نمارس فيها نوعا فريدا من اللعب بالنار الحقيقة نطلق عليه اسم (الهيُوبْ) في موسم معين تعارفنا عليه... وبنفس روح المرح كنا نزاول مع اهلينَا حتى في اللبل، فلاحة الارض وريها.. ونستيقظ مبكرين على اصوات السواقى.. وهى تدور في الفجر، فنسرع لشاطىء النيل لنصطاد السمك.. وكنا ايضا نقضى اوقاتا جميلة في السباحة في النيل، فنقفز على سطح

الماء من علو شاهق بعد ان نتسلق الاشجار المنحنية بعض فروعها فوق سطح الماء.. او نصعد على عمدان الساقية العالية، ونقفز على الماء من هناك.. وكان هذا النوع من اللعب يتطلب ان يكون المرء سباحا ماهرا. وكنا كذلك جميعنا ـ فقد كان عيبا الا يتعلم السباحة حتى الاطفال في اعمارنا الصغيرة تلك.. واذكر الآن ان امراة مسنة تدعى (بت سعد) هى التى علمتنى السباحة! كنا نلهوا هكذا في النيل، رغم انه على زماننا كانت لا تزال تسبح فيه ايضا التماسيح. وكانت حوادث اختطافها للناس والحيوانات مألوفة في زمن الفيضان كل عام.

كنا نمارس في الليالى المقمرة العابا شاقة وكانت كلها تقوم على اساس المنافسة بين فريقين او شخصين في مختلف ضروب المنافسة، من شجاعة وقوة وسرعة تصرف ـ وكان الكبار هم المشجعون للمتنافسين ـ بل وكانوا في بعض الاحيان، يشعلون نار الفتنة، ليشتد التنافس بيننا.. كل ذلك في مرح برىء وروح طيب ـ واذا حدث ان اشتجراثنان منا بسبب حدة التنافس، يتدخل الكبار لا لكى ينتهى الشجار، بل ليتحول الى شكل آخر من اشكال التنافس ـ فيطلبون من المتشاجرين، ان يضرب كل منهما الآخر، عددا من الضربات يتفق عليه على ظهره العارى، بسوط من جريد النخيل.

وكان ذلك يتم في اكثر الاحيان بصورة قاسية من الطرفين، لدرجة ان يتصبب الدم على ظهر كل ثم ينتهى الشجار عند هذا الحد، ويذهب كل لمنزله بعد نهاية اللعب، وكأن شيئا لم يحدث وهذا التقليد كان متعارفا عليه ايضا في مناسبات الزواج ـ ففى حفلات الزواج يكون من حق العريس ان يضرب زملاءه من الشباب الذين يصطفون امامه عارية ظهورهم عددا من المرات، وسط زغاريد النساء وتشجيعهن اعجابا بشجاعة الشبان!! يحدث كل ذلك في جو من البهجة والمرح والغناء والرقص. ولا زال ظهرى يحتفظ بعلامات اضحة تماما من آثار ممارسة ذلك التقليد في (تلك الايام) رغم مرور هذه السنوات الطوال، منذ ذلك العهد.. وهو دليل على قسوة الضرب. لقد مارست هذه العادة حتى بعد ان بلغت درجة من الوعى والادراك جعلتنى لا احبذها.. وذلك حرصا على استمرار الانتماء وعدم الانعزال عن الاهل...

في مجتمع القرية ذاك لم تكن هنالك فوارق اجتماعية تذكر بين المواطنين ـ فالكل يعيش عيشة راضية، في الحد المعقول والمقبول في ذلك العهد ـ فالجميع يملك نصيبه من الاراضى، على صغر مساحاتها، والكل يزرع ارضه بما يكفى حاجته على الاقل من الخضر والحبوب والعلف، والكل يربى داخل منزله أغنامه ودجاجه والبعض يملك ثورا او ثورين لتدار بهما الساقية، والجميع يملكون اشجار النخيل قل او كثر عددها، ليتوفر بذلك المحصول

وحتى هؤلاء كان يقطع عليهم الطريق بالوساطات زبانية الادارة الاهلية تأكيدا لاهلية السلطة - واذكر ان جدى لابى رحمة الله عليه - وكان عضوا في مجلس العمدة - كان يذهب في ايام معينة من الاسبوع، لمركز الادارة الحكومية في بلدة مروى - دون اى غرض سوى التصدى بالوساطه - مع آخرين - (اجاويد) لفض النزاعات بين المواطنين، قبل ان تصل لسلطة المأمور او القاضي.. وقد كان ذلك العمل، في نظر الاهالى مستحبا تسنده التقاليد والعرف، بل وتعاليم الاسلام.

إن ما خصصته الادارة الاستعمارية كمرتبات شهرية للعمدة والمشايخ، كانت مبالغ زهيدة للغاية.. ولكن تلك الادارة، عوضتهم باستلام نسب معينة، من اموال الضرائب التى يجبونها من المواطنين، على النخيل والاطيان.. وواضح الغرض من هذا الاجراء الاستعمارى، وهو ان يحرص رجال الادارة الاهلية على تحصيل اكبر قدر ممكن من تلك الضرائب!... وهو امر يمكن ان يفتح الباب واسعا امام تردى الادارة في اساليب الفساد الادارى المتنوعة: لاسيما وان الغرامات التى تجبيها محاكمهم من المواطنين، تدخل ايضا في حساب تلك النسبة.. ولكن عمدة البركل - على أيامنا - ومن بعده (ابنه) رحمهما الله - كانا مشهورين بالطيبة والتواضع، وفض منازعات المواطنين بالتى هى احسن، عن طريق الاجاويد دون اللجوء الى اصدار الاحكام، وكذلك كان احمد الدوش شيخ القرية وكان العمدة يساعد الأهالى بمنحهم بذور القمح وقت الزراعة، ليردوه بعد حصاد محصولهم..

أذكر حادثة واحدة هامة جعلت اكثر من غيرها - كل اهل القرية في رأيى آنذاك، يحسون بسطوة الادارة الاستعمارية المباشرة. تلك كانت عندما قررت الادارة ان تأخذ بدون مقابل (شتول) النخيل من اهلنا ليستفاد منها في مزارع حكومية. فرفض اهلنا في قرية البركل هذا. كمارفض المواطنون في مناطق اخرى كبلدة الغابة. وحاولت الادارة الاستعمارية، ان تستعمل القوة لارهاب الاهالى. فاحضرت اعدادا من رجال البوليس المسلحين ولكن اهلنا لم يرهبهم ذلك. ووقفوا بطواريهم وفؤوسهم في وجه السلاح. الامر الذى اضطر الادارة الاستعمارية الى التراجع.. ولكنها بعد ذلك، قدمت قادة العصيان لمحاكمات جائرة قضت بأن يبقى بعضهم فترات متفاوته في السجن وكان قد تولى الدفاع عن المناضلين المرحوم مبارك زروق وقد شعرت وقتها بالفخر والاعتزاز، ان كان بين هؤلاء المناضلين خالى عبد الغفار محمد على فور ومعه عبد الله كركر ومحمد طه نصر وعلى محمد دنقله وعبد الله جبريل ومناضل آخر لا اذكر اسمه..

النقدى الذى يساعد في الحصول على بقية احتياجات الحياة ـ من سكر وشاى وملابس وغيرها.. قليلا كان عدد الافندية والتجار من اهل القرية.. وكان هؤلاء ـ ولا سيما الافندية ـ احسن حالا، واميز وضعا اجتماعيا... فكلمة (فلان افندى كانت تعنى شخصا مرموقا، مفضلا على عباد الله الآخرين. وكان هنالك المغتربون من اهل القرية، بمن فيهم بعض التجار والافندية، والجنود والعمال.. وكان هؤلاء حسب مقدراتهم المالية المتفاوته، يعينون اهليهم بالقرية يمدونهم ببعض (المواهى) الشهرية وبالملابس والسكر والشاى وغيرها في مناسبات عودتهم في العطلات او يرسلونها مع من يحضر الى البلد من الاهل في حالة عدم تمكن احدهم من الحضور..

صنف واحد من اهل القرية كان مميزا ـ اولئك هم رجال الادارة الاهلية ـ العمدة والشيوخ ـ وتبدو ميزاتهم ظاهرة في اتساع الاراضى التى يملكونها في القرية، وفي الجزر القريبة منها والبعيدة وفي الاعداد الكثيرة من شجر النخيل وفي المساحات الكبيرة التى تشغلها منازلهم، وحسن بنيانها وتأثيثها بالمقارنة مع منازل اهل القرية، ثم هم يمتازون بممارسة السلطة.. وكل ذلك ادى الى الوضع الاقتصادى والاجتاعى المتميز. وكان ذلك طبيعيا بالنسبة للسلطة الاستعمارية في ذلك العهد. فالادارة الاهلية، كانت تمثل بالنسبة لتلك السلطة آنذاك، ارخص نوع من انواع الادارة، من ناحيتى حفظ الامن وجباية الضرائب.. لقد كان اهلنا جميعا يحترمون العمدة، ويرهبون سلطانه.. فقد كان لا مرد لحكمه، دعما لمكانته وسلطته من قبل الادارة البريطانية.. واذكر ان العمدة عندما يصادف مواطنا على ظهر حماره كان على ذلك المواطن ان يترجل احتراما ومهابة ـ لقد استعانت الادارة الاهلية ايضا، لدعم سلطانها ببعض المواطنين المرموقين. فجعلت منهم مجلسا للعمدة يستنير بآرائهم، ويستشيرهم في بعض الامور. واصبح بالتالى لهؤلاء ايضا وضع مرموق، بل ان بعضهم لبعض الميزات الخاصة به، اصبحت له مكانه تكاد تنافس مكانة العمدة ذاته ـ وهذا الوضع بالطبع كان يعتمد على شخصية العمدة، قوة وضعفا.

لقد كانت الادارة الاهلية، هى ظل السلطة الاستعمارية، الذى يحسه المواطنون لقربه منهم. اما السلطة ذاتها، ممثلة في المدير او المفتش او المأمور او الضابط، فنادرا ما يحس بجهودها، او يلجأ لها عامة المواطنين في ذلك الوقت.. ولكن صحيح انه بمرور الزمن، وبفعل التطور، بدأ البعض من الذين تقدم وعيهم يتجاوزون سلطة الشيخ والعمدة، ويطرقون في معالجة امورهم ابواب مكاتب المفتش والمأمور والقاضى..

واذكر الآن ونحن طلبه صغار، ان جلسنا الاخ جعفر الحسن وشخصي في منزلنا بالقرية، والفنا بالتعاون اغنية في هذه المناسبة بلغة الاهالى قلنا فيها:

ارحكا يا صاحبي كدى النقوم * ني تمور البركل نحوم
فيها باكى وفيها مظلوم * واصلو ظلم الناس ما بيدوم
في الجناين زرعوا النقل * ودار يتاجروا كمان بالشتل
عاد دا ظلما ما بتقبل * على يرضاه وضيع اصل
من مصر جونا اتحولوا * وقعدوا في السودان طولوا
في الظلم عاموا اتبلبلوا * ما بندوركم قوموا ارحلوا
انت يا بركلنا الكبير * يا مظليم يا مكيسير
كل خيرا فيك للمدير * ضوقوا الشاكى عذاب نكير

وقد شاعت هذه الاغنية وقتها بين المواطنين.. واذكر ان احدهم ممن يهتمون بالتقرب من الادارة الانجليزية، نقل هذه الاغنية للسلطة في مروى، شارحا تأثيرها الضار في نظره على المواطنين! وكان لهذا بعض الاثر في حياتى بعد ذلك لزمن طويل..

كان اهلنا من الكبار في القرية يقصون علينا قصصا غريبة عن سطوة الاستعمار جبروته في عهده الاول في البلاد من ذلك ان كثيرا من الاعمال مثل اصلاح الطرق ورصف الموانى النهرية كان يفرض على المواطنين القيام به بدون مقابل، على نظام (السخرة) كما كان الحاكم البريطانى يتنقل بين مروى وكريمة بالمراكب - اذ لم تكن هنالك وسيلة مواصلات اخرى في ذلك الزمن سوى الدواب. وكان البوليس يقوم باجبار المزارعين ليجروا المركب من ساقية لاخرى حتى يصل الحاكم لكريمه بالسرعة اللازمة في رحلته عكس التيار. وكانت تنتشر السواقى ولايفصل بين الساقية والاخرى سوى بضع عشرات من الامتار واقل من ذلك في بعض الاحيان.

ويحكى اهلنا ايضا قصصا غريبة عن احد المديرين البريطانيين للمديرية الشمالية يدعى جاكسون - كان رجلا غريب الاطوار واستعماريا متمرسا - من ذلك انه في مرة من المرات طلب ان يقام له مأتم على اعتبار انه توفى وفي ذلك المأتم الخيالى جاء بعض النسوة يبكينه قائلات:

سمع جس النحاس يرزم   يا جكسم قليل اللوم
ووب الليلى يا جكسم   ويبكنك بنات ابودوم

ويعزى لهذا المدير ايضا قلة انتشار التعليم في المديرية الشمالية وكان يروج لشائعات تجعل الاهالي يمانعون في ارسال ابنائهم ليتعلموا في العاصمة زاعمـا ان هؤلاء الابناء يتعرضون لفساد اخلاقهم هناك. وبفعل سياسته الاستعمارية هذه كانت توجد في كل المديرية الشمالية من حلفا حتى حدود المديرية مع العاصمة مدرستان وسطيان فقط احداهما في حلفا والثانية في بربر..

الحركة الطائفية

لا استطيع، وانا اتعرض بهذا الوصف العابر، لحياة اهلنا في القرية دون ذكر ما كان للنفوذ الطائفي من اثر عظيم على ذلك النمط من الحياة وفي تلخيص لذلك الاثر ـ اعتبره جامعا ـ أقول: كان اهلنا يعتبرون عدم الايمان بالطائفة الختمية وزعيمها، شركا بالله وكفرانا مبينا!! فتعبير (يا ميرغني عند الشدائد، او يا ابو هاشم، هو النداء المفضل في طلب النجدة والاستغاثة،... وتعبير (وحات سيدي او وحات ابو هاشم) هو القسم العظيم الذي يخشى من يقسم به، ان يصيبه مكروه لو كان كاذبا! ـ وكثيرا ما سمعنا اخبارا وحكايات يتداولها المواطنون في القرية، بان فلانا اصابه من الضر ما اصابه، بفعل القسم بزعيم الطائفة وهو كاذب!!..

وعلى الرغم من حب اهلنا العظيم لنخيلهم واراضيهم، فهي مصدر رزقهم، الا انهم تبرعوا ببعض ما يملكون من نخيل واراضي لزعيم الطائفة ـ وفي موسم حصاد النخيل، كنا نرى الخليفه علي مالك، كبير خلفاء الختمية في المنطقة، يأتي لقرية البركل والقرى المجاورة، ليشرف بنفسه على جمع محصول نخيل دائرة الميرغني، بواسطة الخلفاء المحليين، ومن اشهرهم في قرية البركل، على ايامنا، الخلفاء محمد الحسن ومحمد عبد العزيز ومحمد المقبول.. وكنا نراه محصولا وفيرا، مقارنا مع ما يملكه هؤلاء الذين تبرعوا به، او تبرع به آباؤهم واجدادهم.. ان حدائق النخيل التي تملكها دائرة الميرغني، كانت منتشرة في كل مكان ـ فكثيرا ما يشير الاهالي بان هذه جنينة السيد علي، والاهالي انفسهم هم الذين يقومون ـ تطوعا ـ برى هذه الجنائن والعناية بها..

لقد كان يسند النفوذ الطائفي ويغذيه، جهد فكري وتنظيمي كبير ـ فقد كانت تقام الاحتفالات الاسبوعية، التي ترتل فيها الاذكار الطائفية، ويمجد

المحتشــده وهى تتعــالى اصواتها بالتهليل والدعاء.. ولست انسى ان جدى رحمه الله، وكان واحدا من الخلفاء، ساقنى ممسكا إياى من يدى الى ان وقف بى امام السيد على الميرغنى، طالبا منه تبريكى.. وامام اصرار جدى وضع الزعيم ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ يده على رأسى مهمهما بكلمات لم اتبينها، فقد كان من عادته لدى استقبال المريدين ان يضع منديلا على فمه.. ولا انسى كذلك ان بعض المواطنين والمواطنات كانوا يتسابقون للحصول على زجاجات مليئة بماء، قيل انه ماء وضوء السيد.. وهم يتناولون جرعات من ذلك الماء تبركا!! كما لا انسى مطلقا انه بعد نهاية الزيارة جىء بباخرة القت مرساها على شاطىء النيل بالقرب من القصر وخرج الزعيم يحف به الخلفاء، ويحيط به بعض رجال الشرطه، ويتبعه جمع غفير من المواطنين، حتى وصل الموكب الباخرة، فدخل الزعيم وخلفاؤه وبعض الاعيان، ثم ابحرت الباخرة في طريقها لبلدة كريمة، ليستقل الزعيم القطار في رحلة العودة للخرطوم بحرى.. وكانت جماهير المواطنون تتابع سير الباخرة عدوا على ضفة النيل، وهى تطلق بين الحين والحين صوتا مدويا، تجاوبا مع تهليل الجموع، وحفزا للمزيد من التهليل...

ان هذا المهرجان العظيم، ومظاهر الحفاوة التى قوبل بها زعيم الطائفة، لم يكن قاصرا على الجـانب الشعبى وحسب، ولكنـه كان بالمثل من جانب السلطة الحاكمة، الامر الذى كان يرمز في وضوح تام، الى دعم تلك السلطة، ومباركتها، لانتشار النفوذ الطائفى وسط المواطنين.. وكان هذا الدعم، وتلك المبـاركـة تتخـذ اشكالا عديدة ليس على المستوى المحلى وحسب بل وعلى المستوى القومى كذلك.

المراحل التعليمية

خلاوى القرآن

على أيام طفولتنا، كانت الخلوة لاتزال تلعب دورها الهام، في التعليم والتنشئة ـ كانت توجد في قرية البركل وقتها خلوتان: إحداها تقليدية والاخرى خلوة نموذجية. كانت ـ كما اذكر ـ اقرب الى المدرسة النظامية، منها للخلوة فشيخنا محمد الحسن الحاج نور كان على جانب حسن من الثقافة العامة،

زعمـاؤها.. وكان هناك تنظيم شباب الختمية، الذى يتم تدريبه على السير بخطوات عسكرية، وهم يرتدون زيا خاصا، ويرددون الاناشيد الطائفية (شى لله يا ميرغنى) وهو امر محبب للشباب في القرية، ذلك الشباب الذى يعيش الفـراغ والتبطل.. وكانت هناك ايضا مناسبات خاصة تقام فيها احتفالات كبيرة تخليدا لمولد زعماء الطائفة ـ ويغطي الاهلى بجهدهم الذاتى نفقات هذه الاحتفـالات والمنـاسبـات ـ كنا نستمع ايضا في بعض المناسبات للاغانى الكثيرة التى ترددها النسوة من امثال:

يا سيدى وينك لى

دايرين شوفتك الشايقية

وكنـا نستمـع ايضـا لاولاد حاج المـاحى وهم ينشـدون باصواتهم الجمـاعيـة الجميلة انـاشيد الطائفة الختمية بجانب الاناشيد النبوية في احتفالات تؤمها اعداد غفيرة من المواطنين..

وكان خلفاء السيد على منتشرين في كل قرية، يتم اختيارهم بعناية ومن اصحـاب النفـوذ والوضـع الاجتماعى المتميز.. ويقام لذلك احتفال وتمنح شهـادات لمن يتم اختيـاره خليفة للسيد.. وكان زعيم الطائفة يحرص على الاتصال المنتظم بهؤلاء عن طريق الرسائل المنتظمة... ان كلمة (يا خليفة) وحدها كانت تعنى وضعا مميزا، ذا صبغة دينية..

ومن المعالم البارزة، التى تعكس مدى ايمان اهلنا في القرية ـ في ذلك الزمن ـ بالطائفية، ذلك القصر الفخم الضخم ـ بمقاييس ذلك الزمن ـ الذى بناه اهلنا في القرية لزعيم الطائفة، لقد خصص الاهالى مساحة من الارض واسعة ليقام فيها البناء، برغم صغر مساحات الاراضى التى يملكها المواطنون عموما ـ اما الطريقة التى تم بها البناء، فهى شاهد جديد على عمق ايمان أهلنا ـ ذلك الوقت ـ بالطائفية.. لقد اشترك في عملية تشييد القصر كل اهل القـريـة، من الرجال والنساء، شيبا وشبابا، وحتى الاطفال وبهمة ونشاط عظيمين.. وكانت تقدم الوجبات الغذائية الجماعية للعاملين.. وقد تم كل ذلك بالاعتماد على الامكانات الذاتية للمواطنين، وجهودهم الطوعية.. وتم تشييد السراى من طابقين، الامر الذى لم يكن مألوفا في المنطقة ذلك الوقت، ولا في وقتنا الحاضر!! واذكر ان السيد على الميرغنى زعيم طائفة الختمية قد زار قرية البـركل بعد اكتمال البناء، وكانت هذه الزيارة مهرجانا عظيما، احتشد له المواطنون من جميع القرى المجاورة، وكانت ساحات القصر تزدحم بالاهالى معظم ساعات اليوم وحتى ساعة متأخرة من الليل. وكان الزعيم يطل بين وقت وآخـر على المـواطنـين من منصـة عاليـة في واجهة المبنى ليبارك الجماهير

بالاضافة لعلوم الدين ـ يدل على ذلك مظهره، وطريقة إدارته. كما ان بالخلوة النموذجية عدداً من الفصول الدراسية، وبعض المعلمين الذين تخرجوا على يد الشيخ، فهم تلامذته .. كما ان مباني الخلوة وموقعها كان ممتازاً .. كان هذا الشيخ يحظى باحترام الاهالي لدرجة عظيمة. وكانوا يقدمون له الهدايا من كل نوع، ويحيطونه بعطفهم، ويستجيبون في نشاط وهمة، لكل ما يطلب ويقدمونه في جميع مناسباتهم. فهو امامهم في الصلاة، وخطيبهم يوم الجمعة، وفي الاعياد ... وهو مستشارهم حتى في شئونهم الخاصة .. وهو الحكم في منازعاتهم. ولهذه الخلوة التي لا تبعد كثيراً من منزلنا قرر اهلي ان انتسب. ولا اذكر على وجه التحديد، كم من الزمن بقيت فيها .. ولكن استطيع القول بصورة قاطعه، ان تلك الفترة لم تكن طويلة، ان لم تكن اياما معدودات .. والدليل على ذلك، هو ان اهلي، عندما ذهبوا بي لمدرسة مروي الاولية، لم اقبل بالسنة الاولى لصغر سني .. وقبلوني بما كان يسمى في ذلك الوقت، سنة اولى «تحضيري». وهو مستوى اشبه بروضة الاطفال الآن .. ولكني اذكر الان بوضوح شديد السبب في عدم استمراري بالخلوة النموذجية تلك .. ذلك انني عندما كنت في يوم من الايام، عائدا من الخلوة، في رهط من زملائي، نجري ونلعب كعادتنا، كان احد زملائي يمسك بقطعة من الزجاج مكسورة ويدور بها بسرعة فما كان إلا ان «طارت» قطعة الزجاج تلك من يده، وانغرست في الجانب الايمن من جبهتي، محدثة جرحاً عميقاً، تفجر منه الدم غزيراً ـ واذكر ان هذا الحادث كان امام منزل عمدة القرية. فخرجت احدى جواريه مسرعة، ووضعت على الجرح مسحوقاً اوقف نزيف الدم وواصلت السير لمنزلنا، بينما كان قد فر معظم زملائي، عندما رأوا الدم وقد غطى تماماً وجهي وملابسي ـ ولما وصلت المنزل، ورأتني على هذه الصورة والدتي وجدتي رحمهما الله، غضبتا ايما غضب واصرتا على الذهاب للعمدة، لتقديم شكوى ضد زميلي. ولكن إزاء اصراري، بعناد شديد، ان ماحدث لم يكن مقصوداً ولا متعمداً، اسقط في يديهما. ولازال اثر الاصابة باقياً الى الآن، رغم مرور هذه السنوات

التعليم الاولى

كانت المدرستان الاوليتان للبنين في كل من مروى وكريمة هما المدرستان الوحيدتان في المنطقة الممتدة من دنتلا شمالا حتى بربر جنوبا. اما المدرسة الابتدائية (المتوسطة) فقد كانت توجد في كل الاقليم الشمالى مدرستان احداهما في حلفا والثانية في بربر كما ذكرت!.. تقف هذه الحقيقة دليلا ساطعا على سياسة الاستعمار التعليمية.وهى سياسة حالت دون تقدم بلادنا، بل وعملت عمدا على تخلفها. اضف الى ذلك نوع التعليم والتربية الذى كان يتبع في هذه المدارس ـولا اريد ان اتطرق لذلك بصورة تفصيلية ولكنى بشكل عابر اقول.. انهم كانوا يشوهون تاريخ بلادنا الوطنى. وفي المقابل كانوا يمجدون بلادهم وزعماءهم.. كنا نحتفل على مستوى المدينة (مروى) والقرى المجاورة كل عام بعيد جلوس الملك جورج السادس. وكانت مدرستنا الاولية بمروى تقوم بادوار رئيسية في تلك الاحتفالات. وكان اساتذتنا يلقنونا الاناشيد في هذه المناسبات..

عيد الجلوس واى عيد
هذا هو العقد الفريد
فليحيا جورج السادس
وليهنأ بالعيد السعيد!

ولكنا مع ذلك، كنا نشعر باحترام شديد لناظر المدرسة والمعلمين وكان في الحقيقة احتراما تشوبه الرهبة والخوف. فقد كان ناظر المدرسة رجلا كبير السن، اشيب محمر العينين، صوته اجش، يبعث الرعب في قلوبنا نحن التلاميذ، واعتقد في قلوب اساتذتنا بنفس القدر!! كان الناظر والاساتذة

وكانت كل المبانى الحكومية تطلى من الخارج كل عام باللون الابيض وتفـرض السلطة فى الوقت نفسه على المواطنين طلاء مساكنهم من الخارج ايضا باللون البرتقالى كل عام، والذى لايفعل يعرض نفسه للمساءله. لهذا كان منظر البلدة جميلا حقا ولكن برغم كل هذا فقد كانت الحياة الاجتماعية بالبلدة جافـة للغـايـة فقد كان عدد السكان قليلا نسبيا، ويعمل معظمهم بالتجارة، وبعضهم موظفون وعمال، والقلة منهم ترتبط حياتهم بالزراعة فى مسـاحات الارض الصغيرة حول البلدة وفى الجروف على ضفة النيل وكان هؤلاء لايميلون ـ لسبب ما ـ للاختلاط بالموظفين القادمين من مناطق اخرى ولهذا اصبح الموظفون بدورهم لايحبذون العمل ببلدة مروى.

وعندما تضطرهم الظروف لذلك، يستعجلون النقل منها كانت قله من عواطنى البلدة المستنيرين من فئة التجار، يؤسسون علاقات مجامله وصداقة مع بعض كبار الموظفين امثال المرحوم محمد عبيد رحمة الذى اشتهر بكرمه وعـلاقـاتـه الحميمـة مع الموظفين. وسوق البلدة صغير لايوفر للتجار ولا للمواطنين حركة تجارية مرضية ولهذا نجد ان سوق بلده كريمة المجاورة، على الضفة الشرقية من النيل، تجذب تجار مروى ذاتها وتجار القرى المجاورة "تنقاسى" ويجد فيه الموظفون حاجاتهم "جميعها"!! لانه تتوفر فيه حركة تجارية نشطة، وقد سبق لى ان ذكرت، ان موقع كريمه كنهاية لخط السكة الحديدية، وبداية لخط الملاحة النهرية، كان العامل المهم فى حركتها التجارية النشطة. ومن هنا كان التنافس الشديد بين البلدتين ـ كل واحدة تريد ان يكـون لهـا مركز الصداره. ولكل الحجج التى يعتمد عليها، ولكن اساس التنافيس فى رأيى كان اقتصاديا يقوده التجار فى البلدتين. ولكن على اى حال، فان التنافس بين القرى والمدن فى تلك المنطقة، كان شيئا مالوفا.

على زماننا كان تأثير المدنية الحديثة على قريتنا ومنطقتنا ضئيلا ـ فعدد المـوظفين المواطنين كان قليلا وهم فى الغالب الاعم من خارج المنطقة وكان اختلاطهم باهلها محدودا اما ابناء المنطقة الذين اغتربوا فى مصر، وعملوا بالجندية، فهم يحضرون فى عطلات سنوية وهؤلاء انفسهم كانوا فى الغالب وبطبيعة عملهم، يعيشون فى المناطق الريفيه، او سمّها المناطق الاقل تقدما حضـاريـا فى مصر.. كما انهم انفسهم كان استعدادهم لاستيعاب التغيير

محترمين حقا. كانوا جميعا يهتمون بهندامهم الوطنى ـ الجلابية والقفطان والحزام والحذاء اللامع والعمامة البيضاء النظيفة.. وكانوا يهتمون بواجباتهم المدرسية، وبمظهرهم اللائق دوما..

ولازلت حتى الآن اعتقد ـ كمعلم سابق ـ ان بعض المناشط التى كنا نقوم بها في ذلك الوقت، كان يجب الا تختفى كما حدث للاسف فقد كانت تلك المناشط في رايى هامة، من الناحيتين التعليمية والتربوية. كنا مثلا نقوم بنظافة مدرستنا صباح كل يوم داخل حجرات الدراسة وخارجها. وكنا نزرع فناء المدرسة بالاشجار والازهار، ونشرف على ريها وتشذيبها. وكنا نذهب في الحصص الرسمية لحدائق الفاكهة الحكومية، لنتعلم كيفية زراعة اشجار الفاكهة وتطعيمها. ونذهب ايضا لورشة الاشغال العامة لنتعلم مبادىء النجارة والحداده. وتحتفظ ادارة الورشة لنا بما نصنعه ليقدم لنا هدية في نهاية العام الدراسى. وكان اهتمام ادارة المدرسة بالالعاب الرياضية المتنوعة اهتماما فائقا.. كان التلاميذ يحضرون الى المدرسة كل صباح من مسافات بعيدة وكثير منهم كانوا من ابناء قرى في الضفة الشرقية للنيل، بينما كانت المدرسة في الضفة الغربية. والمراكب الشراعية هى الوسيلة الوحيدة لعبور النيل في (تلك الايام) وفي هذا مشقة عظيمة. ولكن رغم ذلك كان التلاميذ يتمتعون بقدر عظيم من طاقة التحمل ويرجع ذلك لطبيعة بيئاتهم، التى تربوا فيها على تحمل المشقات، واكتسبوا الاصرار وقوة العزيمة.

بلده مروى ـ كما سبق وذكرت ـ كانت فى فترة من الفترات العاصمة الادارية للحكم البريطانى فى شمال السودان. ولهذا فقد كانت بها المبانى الحكومية الجميلة ـ مبانى الادارة والقضاء والمستشفى والمدرسة والمتحف ونادى الموظفين ومبانى المصالح الحكومية ومنازل الموظفين الانجليز وكبار الموظفين وكانت بها ايضا حدائق اشجار الفاكهة الجميلة، والشوارع المنظمة التى تحفها من الجانبين، الاشجار المخضره الباسقة فى حى البريطانيين

الفصل الثانى

بدايات النضال

المدينة
الجمعية السرية
تجربة نضال
فترة انتقالية

الحضارى محدودا بحكم محدودية ثقافتهم، وتاثرهم العميق بالبيئة القروية التى خرجوا منها كبارا، بعد ان اكتمل تكوينهم ولكن هذا التاثير الحضارى كان يزداد بمرور الزمن، نتيجة لعوامل كثيره. فابناء المنطقة انفسهم، ازدادت هجرتهم لخارجها لاسيما الصغار منهم بغرض التعليم، الذى كان محدودا جدا فى مراحل مابعد المدرسة الاولية، فى بعض المدن كالعاصمة وبربر.. وبازدياد تعليم ابناء المنطقة ازدادت أعداد الموظفين منهم وزاد عدد التجار كما ازدادت الهجرة خارج القطر. اضافة الى التطور المحدود فى وسائل الاتصال المختلفة.



نثرا وشعرا من بعض زملائنا الكبار، فى الفصول المتقدمة فى اجتماعات الجمعية الادبية، التى كانت تنعقد مرة فى الاسبوع فى الامسيات بانتظام كما كنا نقرأ بعض الكتب من مكتبه المدرسة فنتأثر بما نقرأه فى هذا الاتجاه واذكر ان الشخصية الوطنية الاولى التى كان لها اثر فى تكوينى وتوجهى كانت شخصية الزعيم المصرى الشاب مصطفى كامل، فقد كنت اقرأ عنه وله، واحفظ بعض خطبه عن ظهر قلب كما كنا نتأثر بالقصائد الوطنية للشاعرين المصريين شوقى وحافظ، ونحفظ الكثير من اشعارهما.. وتأثرنا ايضا بكتب طه حسين والعقاد والمنفلوطى فى المنحى الوطنى.

لقد كان اساتذه المدرسة عموما جادين، وباذلين اقصى الجهد مع تلاميذهم كما كانت ادارة المدرسة، تحافظ على المستوى الحسن من الانضباط والنظام. وكان احترام التلاميذ لاساتذتهم متوفرا لدرجة المهابه والخوف - واذكر بجانب اهتمام ادارة المدرسة - بالامسية الاسبوعية للجمعية الادبية والتى كانت مجالا خصيبا لصقل مواهب الكتابة والخطابة نثرا وشعرا، وموهبه الحوار والجدل عند التلاميذ كانت هناك حصه المكتبه الاسبوعية الرسمية تدريبا عمليا لتنمية حب الاطلاع والتثقيف الذاتى لاسيما وان ادارة المدرسة، كانت تهمتم ايما اهتمام، بتزويد مكتبات الفصول بالمفيد من الكتب، مراعين في ذلك مستوى التلاميذ الذين كانوا عموما على درجة عظيمة من المقدرة الاستيعابية. فقد كنا نقرأ ونستوعب كتب طه حسين والعقاد والمنفلوطى، في تلك السن والمستوى التعليمى المبكر. لازلت اذكر بالاعجاب، من اساتذتنا الاجلاء المربى الفاضل الشيخ بابكر بدرى طيب الله ثراه والاساتذة حسن عبد الحفيظ وشيخ الدين جبريل ومحمد فضل المولى والشيخ ياجى والشيخ حامد الماحى والشيخ شبيكه وابراهيم ادريس واحمد سعيد ناصر وسيد احمد غاندى والشيخ ميرغنى والاستاذ حسن حامد البدوى وغيرهم. رحم اله من فارق حياتنا منهم واطال عمر من بقى على قيد الحياة في هناء وسعادة. ومن زملائى اذكر ابراهيم الياس ونيازى مصطفى واسماعيل الكاشف واحمد بشرى والمرحوم آدم ابو سنينه وبابكر الطيب وجعفر الحسن ومحمد احمد قاسم وغيرهم ممن كانوا يملأون ساحة المدرسة نشاطا لاسيما على منبر الجمعية الادبية.

وبجانب الاهتمام بهذه المناشط الدراسية والثقافية كان الاهتمام عظيما بالانشطه الرياضية وكان اهتمامنا عظيما بالعمل العام في العطلات المدرسية الصيفيه. كنا نعود في هذه العطلات لمناطقنا من مختلف مراحلنا

الفصل الثانى

بدايات النضال

المدينة

ان التلاميذ الذين اكملوا تعليمهم الاولى من ابناء المنطقة وارادوا او اريد لهم، ان يواصلوا تعليمهم فى المرحلة المتوسطة، كان عليهم ان يغادروا المنطقة الى مدينه بربر او الى العاصمة وكان نصيبى ان اذهب الى العاصمة، التى كان يعمل بها والدى رحمه الله ـ موظفا كما كان لنا بها بعض الاقارب، الحقنى والدى بمدرسة الاحفاد المتوسطة وكانت المرة الاولى التى اغادر فيها منطقتنا، والمرة الاولى ايضا التى استقل فيها القطار وعربة الاجرة الصالون (التاكسى) والمرة الاولى التى اشاهد فيها الاضاءة الكهربائية والشوارع المسفلته وارى الترام، والكبرى على النيل ودار السينما، وهكذا كانت التجربة بالنسبة لى جديدة تماما.. ولكن الذى ساعدنى على اجتيازها، ان شقيقين من ابناء اقاربنا، كانا زميلين لى فى نفس المستوى الدراسى. وكنا نذهب سويا الى المدرسة التى كانت تبعد بعض الشىء من منزلنا، ونعود منها راجلين، كان زملائى من ابناء مدينة ام درمان، يسببون لى فى كثير من الاحيان ـ بعض المضايقات. فعاداتى القروية، وطريقة حديثى كانت محل هزئهم وسخريتهم وضحكهم الامر الذى كان يستفزنى، ويجعلنى فى كثير من الاحيان اشتجر مع بعضهم وحتى فى الشجار كانت تختلف طريقتنا فكانوا يستعملون طريقة الملاكمة. اما انا فكنت استعمل العصا واذكر اننى بالاستعداد الدائم للشجار وعدم ترددى، استطعت ان افرض شخصيتى واتجنب المضايقات بل ويكون لى وسط اولاد ام درمان بعض الاصدقاء..

المدرسة هنا تختلف ـ فالمبانى اكثر ابهة وجمالا، واصبحنا نجلس على مقاعد فى الفصول، بعد ان كنا فى المدرسة الاولية، نجلس على ابسطة مستطيلة من الشعز "شمال" توضع على الارض وكذلك المعلمون يختلفون ـ فكلهم عدا معلمى الدين يلبسون الزى الافرنجى، اما معلمى الدين فيلبسون الزى البلدى كما كان يفعل معلمونا فى المدرسة الاولية.

اصبحنا فى هذه المرحلة المتوسطة، نسمع لاول مرة من بعض معلمينا عبارات داله على الوطنية وكراهية الاستعمار.. كما اصبحنا نسمع مثل ذلك

التعليميـة. وكنـا بمجرد وصولنا ننتظم في اتحادنا، ونقوم ببعض الاعمال النافعة لاهلنا وانفسنا ـ كنا نقدم المحاضرات الثقافية، ونفتتح فصول محو الاميـة، ونقـدم التمثيليات المسرحية التى تخصص دخلها لاعانة المدارس والمساجد والاندية الرياضية والثقافية ـ واذكر هنا ان بعض الاخوة الاكبر سنـا واكثر تقدما في مراحلهم التعليمية، كانوا خير قادة وزعماء لنا في هذه الاتحادات. واذكر على راس هؤلاء الاخ الفاضل محمد سعيد معروف متعه الله بالصحة وطول العمر واذكر انه قام بتأليف رواية وطنية شعرا سماها (اسماعيل باشا) تحكى غزو اسماعيل باشا للسودان، وتشيد ببطولات اهلنا في تصديهم لهذا الغزو. وقد قمنا بتمثيل هذه الرواية، ونالت استحسان اهلنا واعجابهم. لقد كان حتى الكبار من مواطنى منطقتنا ينتظرون بشوق عظيم ليستمتعوا بالحيوية التى تكتسبها المنطقة وبالنشاط المتعدد الجوانب الذى يقوم به اتحادنا في العطلات. ولابد لى هنا من ذكر اسماء بعض الزملاء الذين كان دورهم بارزا في ذلك النشاط، ومنهم محمد سعيد معروف ومحمد عمر ومحمـد على باشا وعباس عبد المجيد وجعفر الحسن والمرحوم حسن عبيد الشايقى ومحمد عبد اللطيف حسون وحسن علوب والمرحوم يوسف العوام نمـر والامين ابوشكيمة وحسين بلال واذكر الاعمام الذين كانوا يشجعوننا السيدين عثمان محجوب وسيد احمد الفاضل والمرحوم محمد المقبول.

الجمعية السرية

لا اعرف على وجه الدقة، متى تكونت هذه الجمعية بمدارس الأحفاد. ولكنى اذكر اننى اصبحت عضوا فيها وانا في السنة الثانية وسطى. كانت عملية الانضمام تدريجية جدا، كشان الحال في الجمعيات السرية، وجدت نفسى صديقا لبعض زملائى، واذكر منهم اسماعيل الكاشف، واجمد بشرى، وغيرهما. وصرنا نجتمع كثيرا في منازل بعضنا. واذكر ان الفكر الذى جمعنا، كان في اطاره العـام، توجهـا اسـلاميـا متشددا. فكنا نبشر بتعاليم الدين الاسلامى، كما فهمناها في ذلك الوقت. نمارس بتطرف شعائرنا الدينية. وكنا نحارب العادات الرذيلة والانحرافات بين زملائنا التلامنذ ـ الامر الذى جعل منا زعماء اسلاميين معروفين في محيط المدرسة ـ ثم انتقلت لقاءاتنا لمنزل استاذنا شيخ الدين جبريل بود نوباوى ثم تعرفنا على استاذنا حسن عبد

الحفيظ وكان كلاهما يقومان بالتدريس بمدارس الاحفاد واصبحنا بعد ذلك وبعد ان اتسعت حلقتنا، نعقد الاجتماعات التى نتبادل فيها المشاعر الوطنية والدينية الجياشة، ونعبر عن سخطنا على الاستعمار، واصرارنا على استقلال بلادنا. وكنا نعقد هذه الاجتماعات، في اماكن بعيدة. على قمة جبل كررى او في خور شمبات بام درمان. واذكر في مرة من المرات، عندما كنا على قمة جبل كررى، قام الاستاذ شيخ الدين جبريل بشرح معركة كررى، مستندا على كتاب حرب النهر لتشرشل من اى اتجاه جاءت جيوش المهدية براياتها، واين كان يعسكر جنود الاستعمار، وكيف دارت المعركة، وانهزم الانصار، بفضل تفوق اسلحة جيش كتشنر.

وأذكر اننا بالحق، وبكل مشاعرنا واحاسيسنا، كنا نعيش المعركة، اعجابا بشجاعة ابطالنا واستشهادهم، دفاعا عن الدين والوطن، وحنقا وحقدا على الاستعمار ـ ومن هنا علمنا ان زعيمى هذه الجمعية الوطنية السرية هما الاستاذان حسن عبد الحفيظ وشيخ الدين جبريل. واتسعت عضوية هذه الجمعية، فشملت العديد من التلاميذ منهم المرحوم عبده حسين محروس والرشيد الطاهر وابوعبيده الخليفه واحمد الزبير رشيد وجعفر الحسن وغيرهم. لقد كان من ضمن الانشطه التى مارستها هذه الجمعية، بغرض تدريب اعضائها على الصبر وتحمل المشاق، السير على الاقدام لمسافات طويلة ـ فكنا مثلا نتحرك من ام درمان عبر كبرى النيل الابيض للخرطوم ثم عبر كبرى النيل الازرق للخرطوم بحرى ثم نتجه لشمبات ومنها بالمعدية لام درمان. ثم احيانا نسير من الطرف الغربى لام درمان، حتي جبل كررى، ووادى سيدنا، ثم نتجه صوب النيل وبمحاذاته حتى نصل الى ابى روف. كان ذلك يتم في خطوات سريعة وبلا توقف.

لقد تزامن نشاط هذه الجمعية ـ وكان هذا طبيعيا ـ مع حركة مؤتمر الخريجين. ولكنها كانت تحمل فكرا مغايرا لتلك الحركة. ذلك من منطلق ايمان الجمعية، ان إستقلال السودان، لا يستطيع تحقيقه (الافنديه) ولكن يحققه المزارعون والرعاة مستندين الى القوة المسلحة. ولهذا كان قرار الجمعية، بتشييد ساقية في المنطقة الواقعه الى الجنوب من كبرى كوستى على الضفة الشرقية من النيل الابيض، ليعمل بها بعض اعضاء الجمعية، كوسيلة للاتصال بالرعاة والمزارعين في تلك المنطقة. وبالفعل تم انشاء هذه الساقية، على يد احد زعيمى هذه الجمعية وهو الاستاذ حسن عبد الحفيظ. ثم قررت الجمعية ايفاد شخصى والاخ ابوعبيده الخليفة لنلتحق به لمساعدته في العمل

ان يكـون ذا صلة بكل ذلك. خاصة وان بعض تصرفاتي، النابعة من تلك الاتجـاهات والاهتمامات، كانت تسبب ازمات بالمنزل احيانا ـ واذكر بهذه المنـاسبـة، انني كنت عندما ينتهي اليوم الدراسي، لا اذهب للمنزل كبقية التلاميذ ولكني بدل ذلك، كنت احمل معي المصحف او كتابا من كتب المكتبه، واذهب لمسجد امدرمان الكبير، فاصلي مع الجماعة الظهر والعصر والمغرب والعشـاء. واطالع كتـابي خلال ذلك ثم اذهب للمنزل بعد ذلك، وكان ابي يسألني عن سبب عدم حضوري للمنزل طوال اليوم فاذكر له الحقيقه.

وعندما تكرر هذا، امرني الا اذهب للمسجد مرة اخرى، ويبدو انه لم يكن يصدق روايتي. فقلت له انني ساستمر اذهب للمسجد، واذا لم يكن مصدقا، فعليه ان يحضر للمسجد وسيجدني هناك في اي يوم يختار. هذه واحدة وازمة اخرى اذكرها ـ كان المستر هبرت مفتش مركز ام درمان، قد تم تعيينـه مديـرا للمعـارف. وبهـذه المناسبة اراد ان يقوم بزيارات تعريفية للمدارس. وفي ذلك الصباح من عام ١٩٤٢، كان محددا ان يزور مدارس الاحفاد. وكنت وقتها في السنة الرابعة الوسطى وحاولت ان احرض زملائي لكي لا يقفوا (للخواجه) عندما يحضر لفصلنا ولكني لم اجد منهم قبولا فلما حضر المستر هبرت يرافقه الشيخ بابكر بدري رحمه الله لفصلنا وكان الاستاذ محمـد فضـل المولى هو استاذ حصة الانجليزي، طلب منا الوقوف فوقف الجميع عدا شخصي. وكان تصرفا ملفتا للنظر، لاسيما وانني قد سبق وان حاولت تحـريض زمـلائي. فجـاءني الاستاذ محمد فضل المولى، وسألني بصوت خفيض، لماذا لم اقف؟ فكان ردي ـ لن اقف لهذا الكلب ـ فما كان منه الا ان قال مخاطبا اياي بصوت مسموع: اذا كنت مريضا قابلني بعد الحصة لتذهب للطبيب. ثم جلس التلاميذ وبدأ الاستاذ مضطربا شرح الدرس، بعد ان إكفهر الجو الامر الذي ادى الى سرعة مغادرة المستر هبرت الفصل يتبعه ناظر المدرسة ـ وكانت هذه ازمة تحدث معي بشأنها كل من الاستاذ محمد فضل المولى والشيخ بابكر بدري ناصحين ولم اعاقب. ولكن الاستاذ محمد فضل المولى، الذي كانت تربطه بالوالد علاقه صداقة، فهو من ابناء مدينة مروي، ابلغ والدي بالحـادث فنصحني مؤنبـا. ذكـرت هاتـين الحادثتين، لاوضح ان اختفائي، كانت معروفة دوافعه لدى اهلي وقد قلل هذا من إنزعاجهم.

كل الذي كنا نملكه في هذه المنطقة الممتدة الشاسعه، هو هذه القطية، التي تقف في ذلك المكان شامخة تشكو الوحدة. عارية تماما لا يحجبها من عيون

الوطنى في تلك المنطقة ـ ثم قررت الجمعية ايضا، ان يلتحق احد اعضائها ببراءة الحاكم العام (وهو الاسم الذى يعادل الكلية الحربية الآن) حتى يستطيع بعد تخرجه كضابط في قوة دفاع السودان، ان يجند القوة المسلحة اللازمة ـ وكان ذلك هو المرحوم العميد متقاعد عبده حسين محروس. كما قررت الجمعية ان يلتحق احد اعضائها بالمواصلات السلكية. وهو الاخ مبارك عثمان كبيده، وذلك لكى يؤسس قاعدة للجمعية في هذا المجال الهام وقد فعل.

ان تجربة الالتصاق بالرعاة والمزارعين في تلك المنطقة جنوب كبرى كوستى كانت تجربة مثيرة حقا ـ وكما سبق ان قلت فان اختيار الجمعية،قد وقع على شخصى وابوعبيده الخليفة، لنلتحق بالاستاذ حسن عبد الحفيظ، الذى كان قد انجز مشروع الساقية.. كنت لتوى قد اكملت المرحلة المتوسطه، وبدأت المرحلة الثانوية، كان ذلك في بداية العام (١٩٤٣م)وكان ابوعبيده ايضا في مثل عمرى تقريبا.. لم يكن ممكنا بالطبع ان نفعل ذلك برضاء اهلينا. وعليه كان لابد من الهرب. وتسلمنا من الجمعية خريطه توضح خط سيرنا حتى نصل الى موضع الساقية. واعطونا ايضا مبلغا من المال مقابل قيمة تذكرتى السفر بالقطار ومصاريف الرحلة. وعندما وصل القطار محطة ربك سرنا وعبرنا كبرى كوستى الى الضفة الغربية من النيل الابيض واتجهنا جنوبا حسب ما كان موضحا في خريطة خط السير. وعلى مسافة وجدنا قطية في الخلاء الفسيح، ووجدنا داخلها بعض الكتب، منها كما اذكر الآن ديوان المتنبىء، الامر الذى كان برهانا كافيا على اننا وصلنا المكان الصحيح، وبعد فترة من الزمن طالت بعض الشيء، حضر الاستاذ حسن ورحب بنا، واتضح انه ذهب لمحطة كوستى، ظنا منه اننا سنواصل السفر بالقطار حتى نصل الى هناك.. وبدأت هنا تجربة جديدة في مشوار حياتى في العمل الوطنى في (تلك الايام).

تجربة النضال

كان اختفائى امرا مزعجا لوالدى، لا سيما وقد كنت ابنهم الوحيد وقد بذلا جهدا جهيدا، لمعرفة مكان اختفائى دون جدوى. واخيرا اسلما امرهما لمشيئة الله. ولكنى اعتقد، ان قلقهما لم يكن شديدا. ذلك ان اتجاهاتى الوطنية الدينية، ونشاطى العام، كان كل ذلك مؤشرا مقنعا، بان اختفائى لابد

الضخم على بقية جسمه، وبدأ يتحرك بعيدا عنى، ولكنه كان بعد كل فترة يرفع رأسه من الارض، ويلتفت ناحيتى ليأمن جانبى. وكنت لا ازال مسمرا في مكانى. وبعد فترة من تحركه وهو يبتعد عنى حتى بدأ زيله قرب المكان الذى اقف فيه يتحرك. لقد كان منظره وهو يبتعد عنى جميلا حقا. فقد كنت انظر في تأمل جسمه الارقط الضخم، وهو يزحف في بطء بين الحشائش، رافعا رأسه ملتفتا نحوى بين الفينة والفينة، حتى اختفى تماما وسط الحشائش ـ واذكر اننا في جلسة مع عمدة المنطقة، اخبرناه بالامر. فذكر انهم يبحثون عن هذا الثعبان في تلك المنطقة، لانه قضى على حياة عدد من الابقار، التى كانت ترعى هناك وهو ـ كما قال ثعبان خطير، لا يمكن قتله الا ببندقية. وهنأنى على ان الله قد لطف بى وسلمنى من شر ذلك الثعبان الخطير.

بعد عدد من الشهور قضيناها على ذلك الحال، اتضح لنا اننا لا نستطيع الاعتماد على ما تدره علينا زراعتنا تلك. كما ان ما يصلنا من معونات مالية بدأ يتناقص مع مرور الوقت الامر الذى إضطر حسن ان يعمل مقاولا بكوستى واضطررت انا، ان اعمل موظفا مع الجيش البريطانى في منطقة الجبلين. فقد كانت الحرب العالمية على اشدها في ذلك الوقت (عام ١٩٤٣) واراد الانجليز، الاحتياط لاحتمال تقهقرهم جنوبا، وبنوا خطا للسكة الحديدية، بين محطة ربك وبلدة الجبلين. واقاموا معسكرا حربيا كبيرا في تلك المنطقة وكانوا يحتاجون لادارة بعض الاعمال الصغيرة، لموظفين صغار يكون لهم بعض الالمام بلغتهم، حتى يتمكنوا من التفاهم معهم. ولم استطع ان ابقى طويلا في تلك الوظيفة. برغم ان الحركة الاجتماعية بمنطقة الجبلين اكثر حيوية منها في المنطقة التى كنت بها جنوب كوستى. فبالمنطقة كان عدد من الموظفين والتجار ويبدو ان وجود الجيش الانجليزى والخط الحديدى الذى ربط المنطقة شمالا بربك وكوستى قد اكسب المنطقة تلك الحيوية فقد تقرر ان اعود للعاصمة لاواصل تعليمى.

فترة انتقالية

مدرسة البوسته والتلغراف

رأت الجمعية انه من الافضل لقضيتنا ان اواصل تعليمى بعد ان إتضح اننى لا احتاج لمزيد من التدريب، على الصبر وقوة الاحتمال، فقد كان هذا من الاهداف الرئيسية للجمعية ـ ان يتم تدريب اعضائها. على الحياة

الشـاقة ومـختلف ضروب المعاناة.. فعدت الى ام درمان بعد انقضاء حوالى العام في حالة الاختفاء.

وفـرح اهـلى لعودتى، والتفوا حولى يسألون مختلف انواع الاسئلة المكـان الذى كنت فيه، وماذا كنت اعمل وكيف كنت اعيش، وغير هذه من الاسئلة. وكـان ردى على اسئلتهم تلك بصدق، ولكنهم كانوا لا يصدقون، فيعيدون الأسئلة واكرر لهم نفس الاجابات ـ وكنت المح في عيون بعضهم اعجـابـا. ولكن ابى رحمـة الله عليه، اظهر غضبه، لاننى قطعت تعليمى واضعت مستقبـلى ـ كما قال ـ وصمم بان اتقدم بطلبى للانضمام لمدرسة البوسته والتلغراف، لاتخرج بعد سنتين موظفا. ولم اكن ارغب في ذلك. بل كنت مصممـا على مواصلة تعليمي. ولكن احد اقاربى، وكان رجلا مسنا، احتفظ له بتقدير خاص، طلب منى ان انفذ طلب والدى، وانجح في امتحان القبول لمدرسة البوسته والتلغراف. وسيعمل هو بعد ذلك، على اقناع والدى للذهـاب لمصر لمواصلة تعليمى، وان لم يقتنـع سيفعـل ذلك هو على نفقته. وجلست للامتحـان ونجحت، وتم إعـلان اسمى، ضمن المقبـولين في تلك المدرسة. فحضرت لقريبى ذاك لينفذ ما وعد. ولكن لدهشتى قال لى (ربناعمل الفيها خير) فغضبت ايما غضب. وقررت الذهاب للزعيم ازهرى ـ رحمه الله ـ فقـد كان رئيس مؤتمر الخريجين، وكان المؤتمر ينظم سفر بعض الطلبة السـودانيـين لمصر، لمواصلة تعليمهم.. قابلت المـرحـوم ازهرى في منزله ـ واستقبلنى خير استقبال.

وتحدثت معه شارحا رغبتى الملحة، في مواصلة تعليمى بانفعال شديد وحماس عظيم، موضحا ان والدى لا يوافقنى على ذلك وهو مصمم على أن اعمل موظفا. وقلت له اننى اعتبره في هذا الامر في مرتبة والدى بوصفه زعيما للمؤتمر، وان رغبتى في مواصلة تعليمى دوافعها الحقيقية دوافع وطنية. فاننى اريد مواصلة تعليمى، لاستطيع خدمة بلادى.. وكان واضحا ارتياح الزعيم ازهرى لحديثى.. فسألنى عن اسم والدى، ومكان عمله. فاخبرته ـ فقال لى ان والدك زميـل دراستى، وساتصل به ليوافق على رغبتك. وبناءا على هذا الوعد تقدمت بطلبى لمؤتمر الخريجين وبعد فترة من الزمن علمت انه تم قبولى بمدرسة حلوان الثانوية ـ كان ذلك في العام ١٩٤٤م. ولكن ابى اصر مرة اخرى على الرفض. خاصة وانه كان يخشى اننى لو ذهبت لمصر فساواصل العمل بالسياسة الامر الذى كانت له خطورته ايام جبروت الملكية في مصر، وقهـرهـا للحركات الطلابية الوطنية. وازاء هذا الوضع، لم يكن امامى الا الدخـول في تجربة مدرسة البوسته والتلغراف ـ ولكنى قررت ان ابقى بها لفترة، اجمع خلالها بعض المال، لاهرب بعد ذلك لمصر، مثلما كان يفعل بعض

الطلبة انذاك. فقد كانت مدرسة البوسته والتحراف تمنح طلبتها اربعة جنيهات ونصف، مرتبا شهريا. وبعد فترة جمعت بعض المال ولكنى في نفس الوقت ادركت ان فكرة الهرب لمصر غير عملية.. وكنت قد علمت انه تم افتتاح قسم جديد، بمدارس الاقباط بالخرطوم، يؤهل الطلبة للجلوس لنيل شهادة اكسفورد، يسمى قسم الشهادة وقد انشأه الاستاذ المرحوم عبد الله عشرى الصديق، وكان معه من السودانيين الاستاذ على توفيق، وبعض الاساتذة المصريين. فقررت ترك مدرسة البوسته، والالتحاق بهذا القسم، دون مشورة والدى طبعا. واذكر اننى في هذه المناسبة نظمت قصيدة قلت في مطلعها:

جئتني يا طيف زعزعت كيانى	وتركت القلب يشكو ويعانى
لم اتيت اليوم يا طيف المنى	بعدما فارقت هاتيك الامانى
بعدما ظن كثير اننى	قد تراخيت الى ظل الهوان

وظل الهوان هذا، كان في اعتقادى ذلك الوقت هو الوظيفة الحكومية، تحت سطوة الاستعمار وجبروته.

● ● ● ● ● ● ● ●

الفصل الثالث

الوعى الطلابى وحركة اليسار

إتحـــاد الطلاب
عـلى اعتاب اليسار
مواصـلة المشوار

الفصل الثالث

الوعى الطلابى وحركة اليسار

اتحاد الطلاب

وبعد الفراغ من نظم هذه القصيدة، تقدمت باستقالتى، ولم يجد معى الترهيب ولا الترغيب فى جعلى اعدل عن تصميمى، وقد استعانوا فى ذلك بخالى محجوب عثمان - رحمه الله وكان وقتها من كبار الموظفين فى مصلحة البوسته والتلغراف، وبعد ان قبلت استقالتى توجهت فورا لمدرسة الاقباط وقابلت ناظر المدرسة وتحدثت معه فى حماس شديد عن رغبتى فى مواصلة تعليمى، فما كان منه الا ان امر بقبولى بقسم الشهادة الجديد، الذى اسسه كما سبق وذكرت المرحوم الاستاذ عبد الله عشرى الصديق وقد تم قبولى بالسنه الاولى رغم انه لم يبق من نهاية العام الدراسى سوى ثلاثة شهور. واستطعت ان اشترى بما كنت قد وفرته من جنيهات، الكتب والكراسات والزى المدرسى "الردى الكاكى والقميص الابيض"، "وابونيه" الترام (الذى يربط الخرطوم بام درمان) وقد اغضبت والدى ايما غضب نتيجة تصرفى هذا ولم يقدم لى اى مساعدة إلا بعد ان وجد نفسه امام الامر الواقع!! وبنهم شديد، ورغبه عارمة اقبلت على الدراسة وكنت ابقى بعد نهاية اليوم الدراسى، جالسا فى الفصل مستذكرا الدروس الى وقت حضور زملائى للنشاط المسائى.. وكان لهذا الاجتهاد اثره فى احراز نتائج طيبه فى امتحانات الفترات ونهاية العام الدراسى. كان هذا العام ١٩٤٤ - ١٩٤٥.

لم تكن الدراسة منتظمة فى قسم الشهادة. فقد كان هنالك نقص حاد فى المعلمين. ونتيجة لذلك فان الاستاذ عبد الله عشرى يخرج من حصة الانجليزى مثلا ليعود لنا فى حصة الجغرافيا او حصة العلوم التى تليها وهكذا

لقد كان حقا استاذا مقتدرا، ورجلا مثقفا بحق لكنه كانت له هو نفسه، ظروفه الخاصة به، والتى تحول دون مواظبته فى الحضور للمدرسة "رحمه الله" بهذا بدأنا نتظاهر ضد ادارة مدارس الاقباط مطالبين بسد عجز عدد

المدرسين، وانتظام الدارسة وهنا اذكر من هتافاتنا العجيبة فى تلك المظاهرات (يسقط ابونا حنا) وقد كان القس حنا هذا رئيس مجلس ادارة مدارس الاقباط آنذاك ثم اتجهت مظاهراتنا العديدة اتجاها سياسيا متجاوبة مع الشعور الوطنى المتأجج، فى ذلك الوقت من عام ١٩٤٥. فخرجنا فى اول مظاهرة وطنية ضخمة، تجاوبا مع نضال طلاب مصر وتأييدا لهم، بمناسبة حادث كبرى عباس فى القاهرة الذى مات فيه برصاص بوليس الملك فاروق، او غرقا فى النيل العديد من الطلبة المصريين واذكر اننا كنا نحرص على المرور بمظاهراتنا من امام دور الصحف ليكتسب عملنا الاعلام المطلوب. ولا انسى ابدا اننا فى مرة من المرات سرنا من امام دار "سودان استار Sudan Star التى كان يحررها الاستاذ بشير محمد سعيد فوقف الاستاذ فينا خطيبا بانفعال شديد، معبرا عن احتقارة لفعلنا، واصفا اياه بكل ما يقلل من قيمته.. لقد كنت انظر اليه وقتها بغضب شديد فقد كان يمثل فى رايى بموقفه ذاك الادارة الاستعمارية فقد كان فى بلادنا العديد من اذناب الاستعمار من المتعلمين وقتذاك وكنا نعتبر صاحب "السوادن ستار" واحدا من هؤلاء وقتذاك. لقد كان يشترك فى تلك المظاهرات الوطنية جميع طلبة المدارس الثانوية مدارس وادى سيدنا وحنتوب والاهلية والاحفاد ومدارس الاقباط - واذكر ان الاخوة احمد محمد خير وعبد الغنيوم محمد سعد والمرحوم آدم ابو سنينه تم فصلهم من مدرسة وادى سيدنا بعد مظاهرات حادث كبرى عباس واذكر من المظاهرات الضخمة التى سيرها الطلبة، مظاهرة وداع وفد السودان المسافر لمصر للمطالبة بالاشتراك فى مفاوضات مصر وبريطانيا بشأن السودان. (مفاوضة صدقى استانسجيت) فى عام ١٩٤٦.

وبتطور حركة الطلاب السياسية متأثرين فى ذلك بالصحوة الوطنية عامة اتجه نفر كريم لتكوين اتحاد عام الطلبة الثانويين فبدأنا الاتصالات السرية بين القيادات الطلابية فى مدارس العاصمة المختلفة واذكر من ابرز تلك القيادات شاكر مرسال - الطاهر عبد الباسط - محمد احمد قاسم - محمد عابدين - حبيب مدثر حسين عثمان منصور - ادم ابو سنينه - عبد القيوم محمد سعد - احمد محمد خير - عبد الرحمن البلك - احمد زبير رشيد - محمد الجواد السراج - عبد العزيز الامين وغيرهم. وبتكوين هذا الاتحاد بصورة سرية اشتد عود الحركة الطلابية وعظم نشاطها، لاسيما بعد قيام اتحاد لطلبة كليه غردون كان ذلك حوالى آواخر عام ١٩٤٥ ... وكنتيجة لهذا النشاط تم فصلى من مدرسة الاقباط لنشاطى السياسى فالتحقت بالمدرسة

بالسجن وهتفنا بسقوط الاستعمار وسقوط الظلم داخل المحكمة وازاء اصرارنا على رفض عقوبة الجلد، قال لنا ضابط البوليس: حسنا اركبوا هذا اللورى (الكومر) لتذهبوا للسجن! فركبنا ونحن فى الطريق كنا نردد الهتافات المعادية للاستعمار وعندما ادخلونا سجن ام درمان جاء الضابط يخبرنا ان العقوبة هى الجلد ولابد من تنفيذها واتضح ان اتفاقهم معنا فى المحكمة كان خدعة وقاومنا بشراسة ولكن قوة البوليس كانت كبيرة وكانوا يجرون من بيننا واحدا اثر واحد ويوقعون عليه العقوبة. وبعد خروجنا من السجن وجدنا عددا من زملائنا ينتظروننا فنظمنا من امام باب السجن مظاهرة اخرى.. لابد لى هنا ان اذكر ان بعض افراد البوليس وحتى بعض الضباط كانوا يتعاطفون معنا رغم جبروت الاستعمار واذكر من هؤلاء للمثال الصول ميرغنى. وفى مظاهرة اخرى، قبض علينا ـ الاخ حبيب مدثر وشخصى ـ وقدمونا للمحاكمة. وكان من المفترض ان يحضر محاكمتنا المرحوم الزعيم محمد نور الدين، احد زعماء الحركة الوطنية وقتذاك ولكنه لسبب ما لم يتمكن من الحضور وحكمت علينا المحكمة بالغرامة ثلاثة جنيهات لكل ودفعها من حضر من ذوينا وعندما حضرنا كالعادة فى المساء لنادى الخريجيين قابلنا المرحوم نور الدين واعتذر عن عدم تمكنه من حضور المحاكمة وسألنا عن النتيجة فقلنا له الحقيقة وطلب ان يرد لنا مبلغ الغرامة لكنى رفضت فى اصرار على اعتبار ان المبلغ قد دفع ولاداعى لاسترداده لاهلنا ـ ولكن الاخ حبيب قابل محمد نور الدين بعد ذلك منفردا واستلم منه المبلغ وجاءنى مسرورا قائلا (ياعوير هاك الثلاثة جنيه بتاعتك تنفعك) واستلمت منه المبلغ واذكر اننى اشتريت به بنطلونا، وكان الاول فى حياتى وعندما لبسته ماكنت اخرج به الا ليلا لانى كنت احس شعورا بالاستحياء.

كنا نحرص على حضور الليالى السياسية والادبية، التى تقام بنادى الخريجين فقد كان النادى يعج بنشاط جم فى تلك الايام وكان بالحق مركزا للنشاط الوطنى لاسيما ايام النضال ضد الجمعية التشريعية ولازلت اذكر الشعراء محمود الفضلى وحسن طه والمرحوم الطيب محمد خير (الزعيم) وكنا نردد اشعار هؤلاء فى مظاهراتنا فنلهب بها حماس المواطنين.

وما مجلس التشريع الا مطية	ذلول مع الحكم الثنائي ظالع
وما مجلس التشريع الا حكومة	تشرع ماقد انكرته الشرائع
ارادتها مسلوبة ورجالها	هم انجليز سودنتها البراقع

الاهليــة الشانــوية بام درمان بالسنه الثالثة. وكان ذلك اوائل عام ١٩٤٦ وتصاعد نشاط الطلبة السياسى ضد الاستعمار فجابت التظاهرات الوطنية العديدة، شوارع العاصمة منددة بالاستعمار مردده الاناشيد الوطنية "صه ياكنار وضع يمينك فى يدى" عالية هتافاتها بحياة وحدة وادى النيل، وبالكفاح المشتــرك بين الشعبــين الســودانى والمصرى - وطاردت قوات البــوليس المتظاهرين بالهراوات والسياط، والقت القبض على القيادات الطلابية واذكر ان ضابط البوليس ابارو وجندى البوليس السرى ود الكتيابى كانا شرسين ونشيطين فى محاولات مقاومة تلك المظاهرات وكانت ادارات المدارس، لاسيما الحكومية منها توقع عقوبة الفصل من الدراسة على قيادات الطلاب كما كان البوليس يقدم قادة المظاهرات للمحاكم. التى كانت تصدر ضدهم احكاما بالجلد والغرامة وحسن السير والسلوك وكنا نحفظ عن ظهر قلب ما تنص عليه المادة ١٢٧ (أ) من قوانين العقوبات "اثارة الشغب" والمادة "١٠٥" (اثارة الكراهية ضد حكومة السودان) هاتان المادتان اللتان كنا دائما نحاكم تحت طائلتهما - اذكر انه بعد واحدة من تلك المظاهرات العنيفة التى خرجنا فيها نحن طلبــة المـدرسة الاهلية الثانوية متحدين قوة البوليس التى كانت قد ضربت حصارا امام باب المدرسة الرئيسى لمنعنا بالقوة من الخروج لكننا مع ذلك وكنا مستعدين لمقاومة القوة بمثلها مهما كان الثمن. ولاانسى هنا الموقف البطولى لبعض الزملاء الذين تقدموا فى الصف الامامى ونحن نقتحم قوة البـوليس التى كان يقـودهــا على ظهر حصانه الضابط الانجليزى المستر كوتس، من امثال مصطفى حسن (مصطفى جيش) والمرحوم بشير النقر - ومحمد الجواد السراج - وحبيب مدثر - ورضا - وعبد الله ابو شنب - وفريد طه - وغيرهم وكنا ننظم تلك المظاهرات بصورة دقيقة كنا نتفق على القيادة، والقيــادة البـديلة فى حالة تعـرض القيــادة الاولى للاعتقال وكنا نتفق على الهتافات والذين يقودونها من اصحاب الحناجر القوية وكنا نرسل الطلائع على الدراجات امام المظاهرة لنحدد خط سيرها، فى اكثر الشوارع ازدحاما او لنتجنب اعتـراض قوة البوليس الذين كانوا فى ذلك الوقت يمتطى بعضهم الخيل (السوارى) لتفريق المظاهرات.

وبعــد تلك المظاهرة العنيفة ضد الاستعمار القى القبض علينا وكنا تسعة عشرة طالبا وقدمنا لمحاكمة فورية وحكمت علينا المحكمة بعشر جلدات لكــل ورفضنــا جميعا حكم الجلد على اعتبارة اهانه لنا وطالبنا باستبداله

كالمرحوم الشيخ عمر اسحق رئيس المجلس، والاستاذ محمود الفضلى فيتوسط هؤلاء لارجاعى فيوافق الناظر. لقد كان المرحوم عبد القادر شريف رجلا فاضلا ومعلما واداريا قديرا ولكنه كالكثيرين من ابناء جيله تأثر فكرا وممارسة بالنمط الانجليزى فى الحياة ومعالجة الامور. فاذكر انه ـ رحمه الله ـ كان يقلدهم حتى مشيته واسلوب حديثه.

على اعتاب اليسار

كان المرحوم آدم على آدم ابو سنينه، زميل دراسة فى المدرسة الوسطى. وقد نمت بيننا منذ ذلك الوقت علاقة صداقة لم تنقطع. ثم جمع بيننا اتحاد الطلبة الثانويين فى مرحلته السرية والعلنية والكفاح ضد الاستعمار.. واذكر ان الاخ ادم اعطانى كتابا للاديب الروسى مكسيم جوركى عنوانه (الام). فقرأت تلك القصة واعجبت بها اعجابا شديدا وبشخصية "بافل" بطلها الذى ناضل ضد النظام القيصرى فى روسيا وظلمه لطبقة العمال الكادحة.. والذى عندما قبض عليه بوليس القيصر وقدم للمحاكمة وقف امام قضاته ليقول فى شجاعة وثقة (نحن اشتراكيون وهذا يعنى اننا ضد الرأسمالية.. ان الرأسماليين جميعا وانظمة حكمهم كلها عدوة لنا. اما عمال العالم فهم جميعا زملاؤنا ـ نتالم لالمهم ونفرح لسعادتهم) كان "بافل" بطل القصة هذا، يعقد الاجتماعات فى منزله وكانت والدته تقوم على خدمة زملائه وكانت خلال ذلك تسترق السمع لما يقولون ـ وفى مرة من المرات تكلمت مع ابنها قائلة (انت وزملاؤك تثيرون دهشتى. فانتم تتحدثون عن قضايا الطبقة العاملة، فى جميع بلدان العالم مالكم وهؤلاء؟! يكفيكم الاهتمام بقضايا العمال فى بلدكم؟!) فاجبها ابنها بافل قائلا: (نحن نناضل من اجل العمال جميعهم يا امى العزيزة، من اجلهم جميعا ان المستقبل لنا ـ المستقبل للطبقة العاملة اننا لانعترف بالوطنية الضيقة ولسنا عنصريين اننا نعرف الاصدقاء والاعداء فى العالم فحسب فالعمال كلهم وفى جميع اوطانهم اصدقاؤنا. والرأسماليون فى جميع البلد ان اعداؤنا) لقد كانت تلك القصة بالمقارنة مع ما كنت اقرأ، فكرا جديدا، جذب اهتمامى، وتجاوب مع مشاعرى الكارهة للظلم والظالمين، والمحبذة للكفاح من اجل حقوق المظلومين والمقهورين... فطلبت من الاخ ابو سنينه ان يمدنى بمثل هذا الكتاب، بعد ان ابنت له اعجابى بما قرأت ـ وهكذا بدا الصديق آدم ابو سنينه يمدنى ببعض الكتب بعد ان حذرنى بانها كتب ممنوعه وانه يتحصل عليها بطريقة سريه!

لقد كان توجه الحركة الطلابية فى ذلك الوقت توجها قوميا حقيقة ولكنه توجه قومى فى اطار النضال ضد الاستعمار وهو نضال شنته القوى الوطنية ممثلة فى مؤتمر الخريجين، واحزابه الاتحادية فيما بعد.. ولهذا كانت الحركة الطلابية كثيرا ما تصطدم مظاهراتها بجماهير الانصار المنضوية تحت لواء حزب الامة بل اننا كثيرا ماكنا نواجه الانصار والبوليس فى صف واحد لضرب مظاهراتنا الطلابية!! وفى مرة حطمت جماهير الانصار نادى الخريجين واذكر اننى كتبت بيت الشعر المعروف على سبورة ووضعتها امام الباب الرئيسى للنادى..

ماحطموك وانما بك حطموا

من ذا يحطم رفرف الجوزاء

كانت جمعياتنا الادبية فى مدارسنا منابر هامة لبث الوعى والحماسة الوطنية وتأجيج شعور العداء للاستعمار وكانت المباريات فى الالقاء نثرا وشعرا والمطارحات الشعرية والمناظرات وجرائد الحائط. وبهذه المناسبة اذكر اننى كنت اصدر جريدة حائطية اسبوعية بالمدرسة الاهلية الثانوية. الخص فيها لزملائى مااقرأه من كتب بجانب مواد اخرى ادبية وسياسية ولهذا اخترت لها اسم (الملخص).. وكنت اختار الكتب التى كنت اقرؤها والخصها بعناية وفى الاتجاة الذى يخدم توجهاتى الوطنية. واذكر ان الكتاب الاول الذى لخصته كان "كفاح جيل" للاستاذ احمد خير وكان قد صدر حديثا وكان المرحوم الاستاذ عبد القادر شريف ـ ناظر المدرسة لايعجبه نشاطى هذا ويعتبره خروجا على النظم المدرسية فيحاول منعى من اصدار الجريدة فرفضت قائلا: اننى سأصدرها واذا رأت ادارة المدرسة مصادرتها فلتفعل، واذا ارادت مراجعتها قبل صدورها وحذف ماتراه غير مناسب فلها ذلك ايضا..

وهذا الجدل مع ناظر المدرسة بشأن هذه الجريدة اكسبها رواجا فاصبح الطلبة وبعض الاساتذة ايضا يتسابقون صباح كل سبت لقراءتها وكان الناظر يامر فى كل عدد تقريبا بحذف بعض موادها. فكنت آتى بورقة بيضاء واغطى بها الجزء المطلوب حذفه، واكتب على الورقة البيضاء جملة حذف بقلم الرقيب) فيزداد تعلق زملائى بالجريدة ـ وكنتيجة لهذا النشاط فقد فصلنى ناظر المدرسة الاستاذ عبد القادر شريف "رحمه الله" ثلاث مرات.. ولكن ضابط المدرسة المرحوم محمد حمزه كان يتعاطف مع نشاطى ذاك. وكذلك بعض اعضاء مجلس ادارة المدرسة و[illegible] الاساتذة من حزب الاشقاء ـ

المدرسية ـ ان عيادة الدكتور عبد الوهاب، كانت فى ذات الوقت منزله ولهذا لم تكن غريبة زيارة الناس للمنزل اقول هذا لاتنافى ذلك الوقت ورغم ان اجهزة الاستعمار لم تكن بعد قد اهتمت بهذا النشاط الماركسى المبتدىء الا اننا كنا نبالغ فى اتخاذ الاحتياطات الامنية الواجبة.. كان اول مايبدأ به الاجتماع هو (الامان) ـ بمعنى ان يتفق المجتمعون قبل بداية الاجتماع، على مايقولونه عن سبب اجتماعهم، فى حالة مداهمة البوليس لهم:! واول مايطلب من العضو الجديد، هو ان يختار له اسما سريا، او اسما (حركيا) وكنت قد اخترحت اسم "صـادق" لشخصى. كان نشـاطنـا العمـلى مركزا على تحريك التظاهرات الطلابيـة ضد الاستعمـار، وتـوزيع المنشورات السرية، وكتابة الشعارات الثورية على الجدران وكان طابعها الاعم تحريضيا واثاريا وكنا من خلال ذلك نقـوم بعملية التجنيد لعناصر جديدة للتنظيم وكانت المؤهلات المطلوبة هى النشاط الوطنى العام ضد الاستعمار والوعى الفئوى والنقابى ومع ذلك كان من يقع عليه الاختيار يخضع لفترة ترشيح للتأكد من صلاحيته للانضمام للعضوية لم نكن نعرف شيئا عن قيادة الحركة او عضويتها كنا نعلم فقط من تم تجنيدنا بواسطتهم ـ الاخ ابو سنينه وعبد القيوم، ثم المسئول عن خليتنا الدكتور عبد الوهاب كان التنظيم حديديا حقا، وكانت العضوية على درجه من الكفاءة والاخلاص والتجرد، والاستعداد للتضحية ـ لقد كان الدافع الوطنى فى الحقيقة هو المحرك المعنوى الاساسى لنضالنا المستميت فى ذلك الوقت. ولاعجب، فقد كان اسم الحركة نفسها "الحركة السودانية للتحرر الوطنى" وتعـرف اختـاصرا (حستو). فقد انعكس هذا على فعالية هذه العضوية فى التأثير فى مجرى العمل الوطنى عموما فى تلك الفترة ـ كان ذلك وسط الطلاب او العمـال او المتعلمـين.. لقـد كان المرحوم الشيخ هريدى رئيس المجكمة الاهليـة بمـركز ام درمان يدعونى "الزبون" لكثرة ماكنت امثل امامه، فى قضـايا التظاهرات الطلابية وكذلك كان الحال بالنسبة للعديد من زملائى، قيادات الحركة الطلابية وقتذاك ـ فقد كنا جميعا ولاسيما اعضاء الحركة منا نشتعل حماسة وطنية ونتوقد اخلاصا للوطن لاتشوبه شائبه.

وبعد فترة من بقائنا فى الخلية، تحت مسئولية الدكتور عبد الوهاب زين العابدين جاء من يخبرنا انه تم تحويلنا لخلية اخرى تحت مسئول أخر كان هو الاخ عثمـان محجـوب.. بعـد ان فصل الدكتور عبد الوهاب زين العـابدين لانه اراد ان يواصل دراسته فى فرنسا ـ كما علمنا بعدئذ ـ وفى الخلية الجديدة انضم لنا الاخ الطاهر عبد الباسط وفخر الدين محمد الذى كنـا نجتمع احيانا بمنزلهم بود نوباوى على ما اذكر.. ولاانسى قصتى مع

وزاد هذا من تعلقى بالاطلاع على هذا النوع من الكتب وبهذه الطريقة تهيأت لى فرصة قراءة البيان الشيوعى، والمادية الجدلية، وتطور المجتمع. وكما سبق لى ان ذكرت فان قراءتى لهذه الكتب - التى لم يكن الحصول عليها ميسورا للجميع - هى التى جعلتنى اقرر اصدار جريدة الحائط تلك التى اسميتها "الملخص" والتى كنت الخص فيها كتابا كل اسبوع واذكر اننى فى اول افتتاحية للجريدة، ذكرت اننى تهيأت لى فرصة قراءة بعض الكتب التى ليس سهلا الحصول عليها لزملائى ولهذا رأيت تلخيصها لهم فى هذه الجريدة والتى اسميتها لهذا السبب (الملخص) وبهذا لم اعبأ بتحذير الاخ ابو سنينه بسرية الكتب - وكانت هذه بداية مشوار طويل جديد فى حياتى وكان ذلك فى اواخر العام ١٩٤٦ للميلاد.

مواصلة المشوار

كان الاخ احمد الزبير رشيد، من اقرب الاصدقاء لى ان لم يكن اقربهم على الاطلاق فقد جمعتنى به فى المدرسة الوسطى عضوية الجمعية الوطنية السرية ثم جمعنا اتحاد الطلبة الثانويين وكنا معا بالمدرسة الاهلية الثانوية وكان زملاؤنا يدعوننا (التيمان) لاننا لم نكن نفترق الا عندما يذهب كل منا لمنزله ولهذا كان طبيعيا ان نواصل مشرار النضال معا فى هذه المرحلة الجديدة فقد كنت اطلعه على الكتب التى يعطينيها الاخ آدم ثم اتصل بنا الاخ عبد القيوم محمد سعد وعلى يده تم ابلاغنا بالانضمام لعضوية (الحركة السودانية للتحرر الوطنى) "وتسليمنا" للدكتور عبد الوهاب زين العابدين، ليكون اول مسئول لخليتنا تلك المكونه منا الاثنين - الاخ احمد وشخصى. وكنا نجتمع بمنزل الاخ عبد الوهاب زين العابدين الكائن بمنطقة السور بالقرب من المدرسة الاهلية الثانوية مرتين فى الاسبوع - يومى الاثنين والخميس. وكان احد الاجتماعين "تنظيميا" نوضح فيه ماقمنا به من نشاط خلال الاسبوع، وتوضع امامنا فيه واجبات العمل للاسبوع القادم. أما الاجتماع الثانى، فكان اجتماعا دراسيا - ندرس فيه النظرية الماركسية - المادية الجدلية وتطور المجتمع والبيان الشيوعى وقد كان الدكتور عبد الوهاب جيدا فى شرح النظرية ويبدو انه استفاد من خلفية دراسته العلمية وكنا نهتم غاية الاهتمام بالدراسة النظرية - كنا نستذكر هذه الدروس مثلما نذاكر علومنا

المسئول الجديد - فقد كان لها وقتها اثر عميق فى نفسى ـكان الاخ فخر الدين يملك دراجة نارية وبعد احد الاجتماعات وبدافع حب الاستطلاع ركبت هذه الدراجة وسرت بها مسافة ولكنى لعدم معرفتى باستعمالها ارتطمت بحائط احد البيوت فاحدث هذا بالدراجة عطبا خفيفا.. ولدهشتى اصر ذلك المسئول ان اقوم على نفسى باصلاح هذا العطب، ولمْ تكن لدى نفقه فقد كنت طالبا لااملك الا قرش فطور اليوم والذى ازعجنى، وسبب لى الكثير من خيبه الامل، ان تلك المطالبة، وضعت فى قالب مرتبط بالافكار والمبادىء التى كنا فى المراحل الاولى من تعلمها والايمان بها واذكر اننى نتيجة لذلك، فكرت جديا فى ترك المدرسة وايجاد عمل ما، يمكننى من دفع قيمه اصلاح تلك الدراجة اللعينه.

ان هذه الحادثة مع بساطتها جعلت صلتى بالحركة تضعف وايمانى بها يهتز لاسيما واننى بعد تخرجى من المدرسة الاهلية، عملت معلما بمدرسة الكاملين الاهلية المتوسطة بالجزيرة - وابتعدت بذلك عن العاصمة وكان ذلك فى بداية العام ١٩٤٨م.



الفصل الرابع

بدايات نضال المعلمين

في مهنة التعليم
براءة الحاكم العام
العودة لمهنة التعليم
معهد التربية ببخت الرضا
إحتراف العمل السياسي

فريق الجهاد الذى كنت اشرف عليه اللواءين معاش نور الدين وبُربُر رحمه الله ـ والعميد معاش إحيمر. ولم تكن هذه المنافسة بين التلاميذ، قاصرة على الالعاب الرياضية. بل كان التنافس على اشده ايضا بينهم فى الدروس. وكنت قد كونت جمعية بالمدرسة اسميتها «جمعية دراسة الشخصيات» وكان من اعضائها هؤلاء الثلاثة الذين سبق ذكرهم. وكان غرضى من تكوين هذه الجمعية هو، بجانب غرس حب القراءة والتثقيف الذاتى ان ابعث الطموح لدى اعضائها، وقد اخترتهم من بين المبرزين فى دراستهم، لكى يترسموا خطى العظماء من القاده الذين نقرأ سيرهم. ولا شك اننى تأثرت فى هذا العمل بجمعيتنا الوطنية فى المرحلة المتوسطة التى تحدثت عنها.

وفى ذلك الوقت كنا ندرك ان للمدرسة دورا تؤديه فى خدمة الوسط الذى تتواجد فيه. وتأثرا بهذا المفهوم، كنت وزملائى نحاول القيام بهذا الدور، فى شكل محاضرات فى اندية البلده الرياضية والثقافية. واذكر اننى فى مساء احد الايام قدمت فى احد هذه الاندية محاضرة عن احد قواد الثورة المهدية وهو «عثمان دقنة» وكانت المحاضرة فى جملتها تمجيدا للثورة المهدية، من خلال الحديث عن معارك وإنتصارات احد ابرز قياداتها العسكريين..

ولكننى كنت عند ما اتى لذكر إسم الامام المهدى، اقول الامام محمد احمد بن عبد الله. ولم اكن ادرى ان ذكر الاسم بهذه الطريقة، كان سيسبب لى كارثة.. فعندما إنتهيت من المحاضرة، والاجابة على الاسئلة رجعت وزملائى للمنزل. وكان الوقت متأخرا فى الليل. وبعد مرور بعض الوقت سمعت طرقا فى الباب الخلفى المطل على النيل. فذهبت لاجد إثنين من كبار رجال الانصار فى البلده. فطلبا منى ان اذهب معهما فذهبت. وابتعدا بى من المنزل، فى ذلك الظلام الدامس تجاه النيل. وكان المكان ميدانا فسيحا خال تماما من المبانى. ثم توقفا، وسألنى احدهما فى غيظ وغضب ظاهرين لماذا تقول عن المهدى، محمد احمد بن عبد الله، ولا تلحق الاسم بعبارة «رضى الله عنه». فتملكنى العجب، وقلت لهما ـ الم يعجبكما كل ما قلته من تمجيد وتعظيم للامام المهدى والثورة المهدية، واغضبكما فقط عدم ذكر «رضى الله عنه» إن كان هذا هو كل ما فى الامر، ارجو ان اؤكد لكما، اننى لم اقصد التقليل من شأن المهدى، لاننى اعزه كقائد وطنى عظيم، حقق للسودان إستقلاله. ويبدو ان كلامى هذا ازال ما بهما من غضب فودعانى وإنصرفا دون ان يلحقنى منهما اذى.

الفصل الرابع

بدايات نضال المعلمين في مهنة التعليم

كانت تربط والدى بالشيخ شبيكة، رحمهما الله ـ صلة صداقة فقد كانا يداومان على الجلوس معا فى الامسيات امام متجر الشيخ «هريدى» بالمحطة الوسطى بام درمان، وايضا فى مقهى ود الاغا الواقع امام نادى الخريجين. وكان الشيخ شبيكة ناظرا لمدرسة الكاملين الاهلية الوسطى. فأقنع والدى ان اذهب معه معلما بالمدرسة. وقبل والدى وقبلت. وحزمت متاعى المكون من لحاف ومخده وغطاء وحقيبة ملابس. وذهبت للكاملين. وكنا ثلاثة معلمين جدد ـ الاستاذ حامد الماحى ـ الذى كان استاذا لى بمدرسة الاحفاد الوسطى ـ والاستاذ عبد القادر حسين وشخصى. ووجدنا هناك الاستاذين حسن الياس وعبد الله منوف. وعلمنا منهما انه كان معهما الاستاذ شاكر مرسال. ولكنه ترك العمل بالمدرسة قبل حضورنا. وقد سكنا جميعنا ـ عدا الناظر الشيخ شبيكة ـ فى منزل واحد، وقد ربطت بيننا جميعا علاقات زمالة طيبة للغاية وصداقة حميمة.. وتعاون اخوى فى المدرسة والمنزل. كنا جميعنا جادين فى آداء واجباتنا المدرسية تجاه تلاميذنا، صباحا ومساء.. ففى الصباح كانت الدروس الرسمية، وفى المساء كانت الالعاب الرياضية، والجمعية الادبية، والدروس المسائية. وكانت تربطنا بتلاميذنا علاقات حميمة. وكذلك كانت صلتنا بأهل البلدة جميعهم جيدة.. برغم التنافس القائم بينهم ـ فقد كانوا فريقين ـ فريق «الدناقلة» وينتمون لطائفة الانصار وهم الاغلبية. وفريق «الجعليين» وينتمون لطائفة الختمية. ولكنا كنا حريصين على المحافظة على علاقات حسنة بزعماء الفريقين.

كما جرت العاده فى المدارس تلك الايام، فقد قسمنا طلبة المدرسة ثلاثة فرق رياضية ـ اسميناها الكفاح، الجهاد، الفداء.. ولكل فرقة مشرف من الاساتذة. واخترنا لكل فريق زيا خاصا يميزه عن الفريقين الاخرين. وكانت المنافسة فى كرة القدم حامية جدا بين هذه الفرق، لدرجة ان جو التنافس هذا إنتقل من المدرسة لاسر التلاميذ فى بيوتهم. واذكر ان من ابرز اللاعبين فى

براءة الحاكم العام:

لم ابق بمدرسة الكاملين المتوسطة سوى عام دراسى واحد هو العام ١٩٤٨.. ذلك ان والدى - الذى كان يعمل موظفا بوكالة حكومة السودان بمصر - رأى من الافضل لمستقبلى ان التحق ببراءة الحاكم العام (الكلية الحربية الان) والذى شجعه على ذلك هو المستر هزلدن - وكيل حكومة السودان بمصر آنذاك، والذى كتب لى خطابا شخصيا رقيقا بعنوانى بمدرسة الكاملين، يحضنى فيه على التقديم لبراءة الحاكم العام ويبدى عدم موافقته على رغبتى فى مواصلة تعليمى بمصر (ويبدو انه تعرف على ذلك من والدى) لاننى - كما قال. سأكون بمصر فى مجتمع غريب بالنسبة لى ولا تتفق طباع اهله مع طباعنا نحن السودانيين! ثم كتب لى والدى بعد ذلك خطابا، يخبرنى فيه انه تحدث مع السير جيمز روبرتسون، السكرتير الادارى لحكومة السودان وقتذاك، عند ما مر بهم فى وكالة حكومة السودان، فى طريقه للندن، فى اجازته السنوية.. وانه كتب اسمى فى مذكرته ووعد خيرا بشأن قبولى فى براءة الحاكم العام.. كتب لى ذلك والدى تشجيعا لى بأن مسألة قبولى اصبحت مضمونة.. فكان على ان اجلس لامتحان الخدمة المدنية وانجح فيه.. فقد كان هذا شرطا لازما، لمن يريد التقديم لبراءة الحاكم العام، او لاى وظيفة حكومية، بعد اكمال المرحلة الثانوية. فجلست لهذا الامتحان وكنت من الناجحين.. فتقدمت بطلبى للقبول ببراءة الحاكم العام، بعد ان تقدمت باستقالتى من العمل بمدرسة الكاملين.. فقد كنت واثقا من قبولى.. خطاب شخصى من وكيل حكومة السودان بمصر وتوصية من السكرتير الادارى لحكومة السودان شخصيا - ليس هناك مما يدعو للثقة اكثر من هذا!!..

اتصلت بالاخ كبيدة الذى كان قد تم قبوله ببراءة الحاكم العام، وتخرج او كان على وشك التخرج، ضابطا بقوة دفاع السودان.. وكانت تربطنى به علاقة الصداقة، منذ ايام الدراسة.. كما كان اخوه مبارك، عضوا معنا فى الجمعية السرية، التى سبقت الاشارة لها. فأخبرته اننى ساقبل - دون شك - ببراءة الحاكم العام.. وعندئذ سنعمل سويا، للقيام بانقلاب عسكرى ضد الحكم الاستعمارى! فأبدى استعداده وحماسه قائلا: إنه استطاع ان يوثق علاقات صداقة مع عدد من العسكريين..

ثم تحدد يوم المقابلة الاولى.. وكان رئيس لجنة القبول بريطانيا، ويجلس بجانبه ضابط سودانى، اذكر انه كان المقبول الحاج.. وعند ما

جلست امام اللجنة بادرني رئيسها بالسؤال ما الذى جعلك تفكر فى ان تصبح ضابطا بقوة دفاع السودان؟ اليس من الافضل لك ن تخدم وطنك فى مهنة التدريس؟! فكانت اجابتى اننى استطيع ايضا خدمة بلادى كضابط فى قوة دفاع السودان! فشكرنى والى هنا انتهت المقابلة! وخرجت متشائما فالسؤال الوحيد عن خدمة وطنى، كان مؤشرا سيئاً، لا سيما واننى لاحظت امام رئيس اللجنة ملفا اخر، بجانب ملف طلب التقديم.. ولا شك ان ذلك الملف احتوى على نشاطى الوطنى فى مرحلة الدراسة ضد الاستعمار.. وبالفعل وصلنى خطاب بعد ايام من سكرتير لجنة القبول، يبدى فيه اسفه لعدم قبولى، طالبا منى فى ذات الوقت، الا احاول مرة اخرى، التقديم لبراءة الحاكم العام!!

وعلمت فيما بعد، بخطاب من الوالد، ان السير روبرتسون عند ما عاد للخرطوم، واصدر امرا بقبولى حسب وعده للوالد، جاءه تقرير المخابرات، يحكى تاريخى الزاخر بالوان النشاط المعادى للحكومة والعقوبات التى وقعتها على المحاكم، فاصدر امرا آخر بعدم قبولى - واذكر هنا ان المرحوم الدكتور جعفر بخيت، ذكر لى فى مناسبة ما، انه عند ما كان يطالع ملفات الادارة البريطانية تحضيرا لرسالة الدكتوراة، قرأ اسوأ تقرير عن شخصى لدرجة انه جاء فى ذلك التقرير، ان والدى الموظف يجب ان يعاقب، لانه لم يحسن تربيتى!!

العودة لمهنة التعليم

وازاء هذا الوضع، لم يكن هنالك بد من العودة مرة اخرى لمهنة التعليم.. فالتحقت معلما بمدرسة الاحفاد الوسطى. كان ذلك فى بداية العام ١٩٤ .. فى هذه الفترة اعدت صلتى مرة اخرى «بالحركة الماركسية» وكنت واحدا من كوادرها المتحركة بنشاط وسط المعلمين - واذكر من هؤلاء بمدرسة الاحفاد، الاخوة عبد الخالق حمدتو والتيجانى الطيب بابكر ومحمد بدرى والطيب ميرغنى ومصطفى مدنى وعثمان محجوب.. وكانت تربطنا بجانب زمالة النضال علاقات صداقة قوية.. وفى هذه الفترة بدأنا التبشير بضرورة قيام نقابة لمعلمى المدارس الاهلية الوسطى، ترعى مصالحهم، وتدافع عن حقوقهم.. وقد واجهتنا فى بداية الطريق صعوبة كبيرة - ذلك ان الاغلبية الساحقة من المعلمين، كانوا يعتقدون، ان التنظيم النقابى شأن يخص العمال وحدهم، ولا يليق بالمتعلمين والمثقفين.. وكانت نقابات العمال فى ذلك الوقت على اشدها.. فبذلنا مجهودات شاقة لاقناع زملائنا المعلمين بالفكرة،

وطنى فى المقام الاول.. لا سيما وان النشاط النقابى، لم يكن قاصرا على المطالبة بتحقيق المطالب الفئوية وحدها، لكنه امتد ليشمل الاهتمام بالمسائل المتعلقة بالتعليم بصفة عامة، وقضايا الوطن بصورة اعم..

كان طبيعيا ان يبدأ التنظيم النقابى بمعلمى المدارس الاهلية ـ ذلك ان قضية التعليم الاهلى فى حد ذاتها، كانت قضية وطنية من الدرجة الاولى ـ فالدافع لقيام التعليم الاهلى كان سد العجز الكبير فى التعليم الحكومى، الذى اراد له الاستعمار البريطانى ان ينتشر بخطى سلحفائية ـ ولهذا فان لجان المدارس الاهلية تكونت من رجال وطنيين حقا ـ ولم تكن وقتها قد بدأت حركة المتاجرة بالتعليم! ولهذا فقد استقطبت هذه المدارس الاهلية خيرة المعلمين الوطنيين فى الغالب الاعم.. اولئك الذين ـ بدوافع وطنية ـ فضلوا العمل منذ البداية فى التعليم الاهلى.. ان تبنى مؤتمر الخريجين لقضية التعليم الاهلى ـ يوم التعليم ـ اعطى هذه القضية بعدا شعبيا هائلا، فاستطاعت استقطاب امكانات شعبية كبيرة لا سيما من فئة التجار الوطنيين ـ واذا استعرضنا الان اسماء بعض المعلمين الذين عملوا فى المدارس الاهلية فى ذلك الوقت فى العاصمة لكان ذلك برهانا ساطعا لما اسلفت ذكره. فمن اولئك الاساتذة عثمان احمد عمر (عفان) ومحمد حمزه واحمد سعيد ناصر واحمد عمر الشيخ وعبد الخالق حمدتو ومحمد احمد ياجى وحامد الماحى ومحمد فضل المولى وشيخ الدين جبريل والاستاذ كرف وحسن عبد الحفيظ ومحمود الفضلى وحسن الطاهر زروق وعبد الكريم ميرغنى والشيخ شبيكة واحمد المغربى وعثمان محجوب وحسن ابو شمة وبابكر احمد موسى وحسن حامد البدوى وحسن طه وزين العابدين الطيب وعبد الرحمن عبد الله وغيرهم.. ولا يعنى هذا بالطبع ان المعلمين بالمدارس الحكومية لم يكن فيهم الوطنيون.. كما ان هناك شخصيات وطنية اسهمت بقدر عظيم فى تأسيس التعليم الاهلى كالشيخ بابكر بدرى وعبيد عبد النور وميسرة السراج والشيخ شبيكة ومصطفى ابو شرف وغيرهم..

معهد التربية ببخت الرضا

ليجد معلم المرحلة المتوسطة فرصة للتدريب فى كلية المعلمين الوسطى (مدرسة السنتين) بمعهد التربية ببخت الرضا. كان عليه ان يمارس مهنة التدريس لسنتين على الاقل.. ولكن قليلين من الذين ينطبق عليهم هذا الشرط،

ولكنـا نجحنـا فى النهـايـة.. وهكذا تأسست نقابة معلمى المدارس الاهلية الوسـطى، كأول نقـابة للمعلمين فى البلاد فى حوالى اوائل ١٩٥٠.. وقد تم اختيارى كأول سكرتير لها.. وباشرت النقابة فور قيامها مسؤلية الاهتمام بمطالب المعلمين، التى كانت تتعلق فى الاساس بزيادة المرتبات وضمانات بعد نهاية الخدمة.

ولم تكن هذه المطالب سهلة، بل انها فى الواقع كانت شبه مستحيلة.. ذلك ان لكل مدرسة من هذه المدارس إدارتها المستقلة، وليس هناك جهاز يربط او ينسق بين هذه الادارات ولما لم تتم الاستجابة لمطالبنا، اجتمعنا لبحث الامر.. وكان من رأينا ـ نحن المرتبطين تنظيما بالحركة الماركسية ـ ان نعلن الاضراب ليوم احد.. ولكن بقية زملائنا وقفوا بحماس ضد هذا الاتجاه، بحجة ان الاضراب عن العمل هو وسيلة يستخدمها العمال، ولا تليق بالمعلمين والمثقفين!! وتقدموا بفكرة الاستقالات الجماعية بديلا عن الاضراب.. وبعد نقاش وجدل استغرق وقتا طويلا، استطعنا ان نصل الى قرار الاضراب ليوم واحد.. ولم ينجح الاضراب النجاح المطلوب، بل انه ارتد سلاحا هدد وجود النقابة ذاتها فماتت او كادت تموت فى مهدها..

وبهذه المناسبة اذكر حادثة طريفة ـ كنت والاستاذ احمد عمر الشيخ نسكن معـا فى منزل بالايجار بمنطقة «السور» بام درمان «الملازمين الآن» وكـان الاستاذ احمد يعمل معلما بالمدرسة الاهلية الوسطى. وكانت حياتنا شاقة ـ لانه كان علينا نحن الاثنين فقط، ان ندفع قيمة ايجار المنزل ومرتب الخادم وتكاليف المعيشة ـ صحيح ان كل ذلك كان سهلا على ايامنا تلك، لكن مرتباتنا ثمانية عشر جنيها فقط تسعة جنيهات مرتب اساسى وتسعة اخرى كانت تسمى «بدل غلاء المعيشة!» ولما قررنا الاضراب ابدى الاستاذ احمد اعتراضه وعزمه على عدم الالتزام به.. فانذرته بأنه اذا لم ينفذ الاضراب، فاننى ساغادر المنزل واتركه وحيدا.. وهو امر يجعله دون شك، فى مواجهة صعوبة مالية كبيرة! ولما لم ينفذ الاستاذ احمد الاضراب نفذت انا تهديدى ورحلت من المنـزل! واذكـر ان الذى شجعنى على اتخـاذ هذا القـرار، هو الصديق الاستاذ عبد الخالق حمدتو الذى ابدى استعداده لاستضافتى بمنزله..

لقد كان نشاطى النقابى هذا يزحم على كل وقتى، الامر الذى كان محل انتقاد الزملاء القياديين فى التنظيم على اعتباره «انحرافا» نقابيا او فئويا!! ولم اكن وقتها افهم نصيب هذا النقد من «العلمية» ذلك اننى كنت على قناعة تامة ان النضال من اجل مصالح الفئة، عن طريق التنظيم النقابى، هو نضال

كانوا يحظون بفترة التدريب.. ذلك لان اعداد هؤلاء كانت كبيرة، ولان مدرسة السنتين، كانت قد افتتحت حديثا (١٩٤٩) لتستوعب فصلا واحدا في العام، محدودة فيه فرص القبول - وكانت صعوبة إيجاد فرصة التدريب اكبر بالنسبة لمعلمي المدارس الاهلية - ذلك لان الاستغناء عن المدرس سنتين كاملتين يتطلب ايجاد البديل، وهذا البديل يعني تكلفة مالية اضافية خاصة وان المدارس الاهلية كانت تستوعب كل طاقة المعلم بالشكل الذي يجعل من غير المعقول اضافة اي عبء اضافي له..

في هذه الظروف تم اختياري من مدارس الاحفاد لفترة التدريب بمعهد التربية ببخت الرضا. وكنت وقتها اتحمل اعباء سكرتير نقابة معلمي المدارس الاهلية الوسطي. وكنا لتونا قد خرجنا من معركة اضراب اليوم الواحد - كان ذلك في العام ١٩٥٠ - لهذا كان واضحا لي ان هذا الاختيار لفترة التدريب له علاقة مباشرة بهذا النشاط. وفي معهد بخت الرضا بدأت حياة جديدة - عدت مرة اخرى طالبا.. كانوا يدعوننا رسميا «طلبة مدرسين» student teachers، وعشت لاول مرة في حياتي في داخلية، تسع ستة عشر طالبا، يعيش كل اثنين في غرفة، ونقتسم جميعنا تكاليف اكلنا وشربنا وخدمتنا وكان زميلي في الغرفة، صديق عزيز، هو المرحوم هرون عبد الحليم.. كما جمعتني كلية المعلمين الوسطي بمعلمين اصبحت تربطني ببعضهم فيما بعد علاقة زمالة وصداقة حميمة - اذكر منهم الاصدقاء: ابراهيم مجذوب وبخيت محمد زكي والمرحوم مجتبى عبد الوهاب واحمد شورة (كتة) والمرحوم الريح مالك وغيرهم وكان قد سبقنا في الدفعة الاولى الاخوة مكاوي خوجلي وعبد الرحمن احمد ومحمد الحبيب مدثر ومامون ابراهيم وغيرهم..

انشيء معهد التربية ببخت الرضا على شاطيء النيل الابيض على مسافة قريبة من بلدة الدويم، التي كانت في زمن مضى عاصمة لمديرية النيل الابيض، ومركزا لناظر عموم المنطقة.. وكانت ميناء نهريا هاما، وملتقى طرق برية.. ولكل هذا فقد كانت السوق الرئيسي الهام، لكل هذه المنطقة التي انتشرت فيها زراعة المحاصيل المختلفة.. ثم قامت مشاريع القطن اعتمادا على نوع معين من السواقي في باديء الامر ثم حلت الوابورات الحديثة محل هذه السواقي.. واتسعت بالتالي المساحات المزروعة قطنا.. وكان هذا سببا في ازدهار نسبي لحياة الناس في هذه المنطقة - واصبحت الدويم سوقا رئيسيا للمحاصيل المختلفة، واهمها الذرة، الغذاء الرئيسي للسكان، وقد اشتهرت

الدويم منذ ذلك الوقت والى اليوم بصناعة الجبنة البيضاء الجيدة الصنع، ويقال ان احد التجار الاغريق هو اول من ادخل صناعة الجبنة والفسيخ فى المنطقة.

لقد حرصت ادارة التعليم البريطانية على بناء معهد التربية على نفس نمط القرى فى المناطق الريفية ـ قطاطى وبيوت من القش حتى ان منزل مدير المعهد وكان يدعى المستر قريفث بنى من القش ايضا كما ان الطعام الذى يقدم للطالب هو نفس الطعام فى القرى (اللقمة والكسرة) وقد عينوا لهذا الغرض (العواسة) وذلك حرصا منهم الا ينعزل الطالب الذى يأتى للمعهد عن بيئته الريفية كمازعموا!..

ولكن الحقيقة تقول، إن السياسة الاستعمارية، كانت تريد لهذا المعهد ألا يلعب اى دور فى النقلة الحضارية فى السودان لا سيما وان الذين يتخرجون سيكونون معلمى مدارس اولية ومتوسطة فى الغالب الاعم، وبعضهم خبراء زراعيون، وخاصة فى فلاحة البساتين.. وهؤلاء جميعا عناصر فعالة فى التأثير، لما لهم من احترام فى نفوس المواطنين، واثر فى تربية النشء.. اضف الى ذلك ان إدارة المعهد كانت تختار بعناية الذين توفدهم لدراسات فى بريطانيا ممن يوالون الادارة الاستعمارية فكرا وممارسة فى الغالب الاعم!

عند ما جئنا لبخت الرضا ١٩٥٠ وجدنا نواة للعمل الوطنى الديمقراطى فى المعهد والمدينة انشأه عدد من الطلبة الاساتذة فى كلية المعلمين، وبعض اساتذتهم ـ اذكر منهم الاستاذ احمد محمد سعد اطال الله عمره والاستاذ محمود محمد على رحمة الله وكذلك بعض ابناء الدويم اذكر منهم الاخوين مبارك الحاج وجلال عبد الرحيم ـ كان عميد معهد التربية المستر هودجكن ونائبه الاستاذ نصر الحاج على والمشرف على مدرسة السنتين هو الاستاذ عبد الحليم على طه طيب الله ثراه..

ونحن نأتى لبخت الرضا لاول مرة، اتيناها بحكم مسبق ـ هو ان هذا المعهد استعمارى، اسسه الانجليز لكى يعدوا فيه ادواتهم الطيعة، لتعليم وتربية الابناء، حتى يشبوا وقد تشبعوا بأفكار الاستعمار، واستكانوا لجبروته ـ ولهذا فقد اتجه الجزء الاكبر من اهتمامنا على المناهج الدراسية، التى كان يتم اعدادها وتجريبها والتدريب على تدريسها فى هذا المعهد ـ فكونا مجموعات عمل من زملائنا لتقوم كل مجموعة باعداد دراسة ناقدة عن منهج معين، وذلك حسب تخصص افراد تلك المجموعة. وتقدم هذه الدراسات فى شكل ندوات فى نادى كلية المعلمين الوسطى، وبحضور الاساتذة المختصين. وكنا نقدم فى هذه الندوات، نقدا عنيفا لتلك المناهج، بعضه موضوعى، وبعضه

لتقـديم الدرس لتـلاميـذ الفـرقة الخاصة، وبحضور كل زملائه المعلمين، المشـاركـين معه فى تخصص المادة المعينة واستاذ المادة، وذلك فى حجرات اعدت خصيصا لهذا النوع من الدروس التى تسمى «حصص المعاينة» وبعد نهاية الدرس يخرج التلاميذ وتنعقد حلقة نقاش جادة، يتعرض فيها المعلم لنقـد زملائه واستاذ المادة، متناولين طريقته فى الشرح، ووسائل ايضاحه، وصحة معلوماته وحتى طريقة تحركه فى الفصل خلال شرح الدرس، الى غير هذا من الملاحظات ـ ولا شك انها طريقة جيدة فى تدريب وتأهيل المعلمين، وحفزهم على البحث للحصول على المعلومات..

كان النـظام المتبع فى كلية المعلمين الوسطى، على ايامنا ـ ان يختار الطالب المعلم مادتين من المنهج الدراسى لتخصصه اضافة الى وجه من اوجه النشـاط، كالريـاضــة، او فلاحة البساتين، او الفنون، او الموسيقى، وذلك تشجيعـا لاثـراء الحيـاة المدرسية بهذه المناشط، حتى تنمو لدى التلاميذ ملكاتهم وهواياتهم الطبيعية المختلفة.

كانت اعمار الطلبة المدرسيين، فى كلية المعلمين الوسُطى، متفاوتة للحد البعيد ـ ففيهم، للمثال، من كان استاذا لمن هم معه فى الدراسة ـ والسبب فى هذا ـ كما سبق واشرت ـ راجع الى ان تدريب المعلمين بهذا النهج بدأ متأخرا بقيام مدرسة السنتين فى العام ١٩٤٩ وكان الحد الادنى المطلوب للقبول هو سنتان فى العمل بالتدريس، دونما تحديد للحد الاقصى ـ واعتقد ان تدريب المعلم يكـون اكثر فائدة اذا سبق التدريب اشتغال المعلم بمهنة التدريس لفتـرة معقـولة اكتسب خلالهـا بعض الخبرات والتجارب التى تساعده فى الاستفـادة القصوى من فترة التدريب ولكن منهج التدريب النظرى، كان بالنسبة لنا ضعيفا جدا ـ وذلك لان ما احتواه ذلك المنهج لا يختلف كثيرا عما تعرفنا عليه من دراستنا فى المرحلة الثانوية.. وهو امر طبيعى إذا اخذنا فى الاعتبار حداثة التجربة.

ومن الانشـطة المفيدة التى طبقتها ادارة معهد التربية، ان تنظم فى نهاية فترة التدريب فرقا من الدارسين لبعض مناطق السودان للتعرف على حيـاة النـاس فى تلك النـاطق ودراسة احوال المنطقة عموما، وكتابة تقارير مستوفاة بهذه الدراسات ورفعها للادارة بعد نهاية فترة الزيارة، التى قد تمتد لاكثـر من شهـر.. وكان من نصيبى والاخ عثمان الجعلى، ان زرنا منطقة الكبابيش. كان الفصل صيفا شديد الحرارة، وكانت وسيلة ترحالنا اللوارى التجارية فى تلك الطرق الرملية الصعبة ـ فزرنا فى تلك الجولة سودرى بضعة ايام فى ظروف صعبة للغاية، بسبب انقطاع المواصلات. ولم يجد استنجادنا

الاخر نتاج حماسة وطنية متقدة، مع ضعف الخبرة والمعرفة.. واذكر هنا ان نقدنا فى جملته كان منصبا على ان المناهج فى عمومها، لا تنطلق من توجهات وطنية وهى مناهج لا تنهل من معين الحس الوطنى.. بل ان بعضها فيه تحقير وتزوير لتاريخ شعبنا، وتمجيد للاستعمار ورموزه.. ففى مادة الجغرافيا ـ على سبيل المثال. كان التركيز على دراسة تفاصيل التفاصيل، عن الجزر البريطانية، بينماكان التعميم والسطحية، بالنسبة لجغرافية السودان، والعالم العربى. وكذلك الحال فى مادة التاريخ.. ولزيادة الايضاح يكفى ان نذكر ان الدرجة القصوى لمادة اللغة الانجليزية فى الاختبارات كانت مائة درجة. بينما هى ستون درجة للغة العربية، وهى اللغة الوطنية. ان جميع المناهج، ما كان يمكن ان يقرر بشأنها، لتصبح معمولا بها، إلا بعد موافقة مدير المعهد البريطانى ولهذا المدير الرأى حتى فى مناهج اللغة العربية والدين الاسلامى!

ان اتجاهنا الناقد هذا جعلنا نحن الطلبة المعلمين بمدرسةالسنتين على غير وفاق مع بعض اساتذة معهد التربية.. واصبحنا محل تحقير وسخرية سدنة بخت الرضا ـ فأطلقوا على مدرسةالسنتين «مدرسة الفاشلين» وفى المقابل كنا نردد على مسامعهم قول شاعرنا:

ـ بخت الرضا ما البخت فى واديك   والبؤس باد فى وجوه بنيك

كانت بخت الرضا مكانا يتسابق المعلمون للعمل به ـ ذلك انه كان معروفا ان الذى يعمل فى المعهد، يجد فرصة القرب من اصحاب القرار، بشأن البعثات الدراسية فى المملكة المتحدة ـ والبعثات تفتح المجال امام الترقى الوظيفى.. وفى هذا المعنى قال شاعرنا:

ـ بخت الرضا هى قنطرة   للمانش او لانجلترى

والذين كان يتم اختيارهم لهذه البعثات ليسوا بالقطع من المشاكسين او المشاغبين امثالنا! وقد يكون لهذه القاعدة بعض الشواذ.. كان الجو العام للعمل فى معهد التربية ببخت الرضا، جوا يسوده الانضباط والنظام والجدية ـ فالجميع اساتذة وطلابا مهتمون بواجباتهم، وينهضون بمسؤلياتهم، بروح دافعها تحقيق الافضل، وانجاز الاحسن.. وكان البعض يبالغ فى اظهار جديته فى الحرص على القيام بالواجب فتراه فى طريقه للعمل، بينما المطر ينهمر بغزارة دون ان يكون لديه ما يحميه من البلل، كما كانت الطريقة المتبعة فى التدريب العملى على التدريس جيدة.. فعلى المعلم ان يقوم بتحضير مادة موضوع الدرس الذى يتم اختياره.. ويستعين فى ذلك بما يرى من مراجع ـ وبالمعهد مكتبة غنية ـ ثم عليه ان ينتقى وسائل الايضاح اللازمة، استعدادا

بجهاز اللاسلكى فى مركز البوليس.. فقد كانت اللوارى التجارية تصل لسودرى حسب التساهيل.. وفى حمرة الشيخ وهى مركز نظارة قبيلة الكبابيش فى الصيف، استقبلنا الناظر واعوانه استقبالا حسنا، وغمرونا بكرمهم المعهود للضيف، ولكنهم لم يكونوا مطمئنين لسبب الزيارة.. ويبدو ان الاسباب التى شرحنا بها سبب زيارتنا، لم تكن مقنعة لهم ولا مفهومة ـ وهكذا اهل البادية دائما كثيرو الريبة والحذر. وهو طبع غرسته فيهم بيئتهم.. مكثنا فى حمرة الشيخ يومين خصصت لنا فى هذين اليومين قطية منعزلة.. قمنا بزيارة معلمين بارزين فى حمرة الشيخ ـ الاول كان المدرسة الاولية ذات المبانى الثابتة ويقوم بالتدريس فيها ناظر يعاونه احد المدرسين وهما دون شك فارسان يستحقان كل الاعجاب والاحترام، لانهما يعيشان فى هذا المكان النائى العسير الاتصال.. زد على ذلك انهما يتنقلان بمدرستهما فى فصل الخريف مع القبيلة من مكان لاخر فى طلب المرعى.. لقد حكى المربى الفاضل المرحوم الاستاذ حسن نجيلة هذه التجربة التى عاشها واقعا مع قبيلة الكبابيش. والمعلم الثانى الهام الذى زرناه كان البئر العميقة جدا، التى يعتمد عليها اهل حمرة الشيخ، فى رى حيواناته واغراضهم الاخرى. وقد قيل لنا ان هذه البئر اثرية، لا يعرفون من حفرها ومتى ولكنهم ـ وآباءهم الاولين ـ ظلوا يستفيدون منها.. ان الطريقة التى يستخرجون بها الماء من هذه البئر طريقة غريبة عجيبة ـ فهم يربطون دلوا كبيرا من الجلد بحبل طويل جدا، وينزلونه داخل البئر، حتى يمتلىء الدلو بالماء ثم يربطون الحبل فى رقبة احد الجمال.. ثم يتحرك الجمل ليسير مسافة طويلة جدا الى ان يظهر الدلو على السطح فيتم تفريغه فى حوض كبير.. ثم تتكرر هذه العملية الى ان تتم سقاية الحيوانات والاكتفاء بالماء للاغراض الاخرى.. توجهت لواحد من عائلة ناظر القبيلة كان يرافقنا ـ اما كان الاوفق الاستعانة بطلمبة رافعة للماء حتى توفروا على انفسكم هذا الجهد وهذا الوقت؟! وببساطة جاءت الاجابة؟ وماذا يشتغل هؤلاء الذين يقومون بهذا العمل؟! اما الوقت فهو ليس مشكلة بالنسبة لنا ـ فادركت سذاجة سؤالى!

ومن حمرة الشيخ توجهنا بأحد اللوارى التجارية الى ام بادر مركز نظارة قبيلة الكواهلة.. فاستقبلنا الناظر بحفاوة واقمنا فى استراحة خاصة بالضيوف قائمة على ربوة عالية، تطل على البلدة.. وفى هذا المكان يوجد ايضا منزل الناظر.. ورافقنا فى الزيارة كاتب الناظر. وقد بذل صاحبنا جهدا كبيرا، للتأكد من حقيقة غرض الزيارة.. واعتقد انه تأكد من ذلك كما اخبرناه، ولا شك انه طمأن الناظر.. لم نبق فى ام بادر إلا يوما واحدا ـ ذلك ان منطقة

ام بادر فى ذلك الوقت (صيف عام ١٩٥١) قد اصيبت بوباء الالتهاب السحائى.. وكان عدد الوفيات رهيبا حقا، نتيجة لضعف الامكانات وتخلف اساليب العلاج وقتذاك.. غادرنا ام بادر لسودرى ومنها للابيض ثم لبارا التى انتهت فيها رحلتنا المفيدة التى تعرفنا خلالها لحياة واحدة من قبائل السودان الهامة، وكل ما شاهدنا فى هذه الرحلة كان جديدا تماما بالنسبة لنا. ولكنها كانت رحلة شاقة وحقيقة ان الوقت لم يكن ملائما للقيام بهذه الرحلة. عدنا لمعهد التربية ورفعنا تقريرنا المفصل عن رحلتنا وكان دراسة لمنطقة الكبابيش واحتوى على معلومات مفيدة ولا مجال للتعرض لهذه الدراسة فى هذا المجال..

لم يكن نشاطنا قاصرا على معهد التربية ببخت الرضا، ولكنه امتد لبلدة الدويم.. كنا نقيم الندوات والمحاضرات الثقافية ونفتح فصول محو الامية فى الاندية الرياضية والثقافية ببلدة الدويم لا سيما نادى الاشبال مقر فريق العمال الرياضى.. ومن خلال هذا النشاط استطعنا ان نوطد الصلات بين بخت الرضا ممثلة فى مدرسة السنتين، وبين قطاع كبير من اهالى الدويم.. وكان هؤلاء مسرورين لهذا.. فهذه الصلة كانت مفقودة تماما فيما قبل، ولم يكن هذا بالمصادفة، ولكنه سياسة المعهد ـ على ما يبدو ـ ما كانت تريد لطلابه واساتذته ان يكونوا على صلة بالمدينة وهى التى حرصت كل الحرص، على اضفاء الجو القروى والريفى تماما، على الحياة فى المعهد..

بعد انقضاء السنتين بمعهد التربية ببخت الرضا، اكملنا فيها دراستنا النظرية وتدريبنا العملى، وبقى لنا ان نأتى للعاصمة لنؤدى تمارييننا العملية فى التدريس بمدارسها، قررت ادارة المعهد منحنا شهادات عرض نموذج منها على لوحة الاعلانات، وكانت عبارة عن اقرار باننا قضينا سنتين بكلية المعلمين الوسطى ببخت الرضا دون اى اشارة لنوع هذه الشهادة.. بينما كنا ـ حسب سابق وعد ـ نطمع فى ان ننال دبلوما معترف به، يؤهلنا لوضع وظيفى احسن.. فرفضنا استلام هذه الشهادة.. وازاء اصرار ادارة مدرسة السنتين على رأيها، اعلنا بالاجماع اضرابا عن التدريس بمدارس العاصمة، ورفضنا استلام تلك الشهادة، الامر الذى كانت [illegible] الاخوة المرحوم هرون عبد الحليم والمرحوم الريح مالك وابراهيم [illegible] وبخيت محمد زكى وشخصى، وشطب اسمائنا من كشف المعلمين [illegible] فى اكتوبر عام ١٩٥١.. وبهذا انقطعت صلتى تماما بالتدريس [illegible] جديدة من حياتى..

تلك قناعة الرجل، بل وفى الحقيقة كانت تلك فلسفة ادارة المشروع البريطانية ـ وقد اكبرت فيه انه برغم العلاقة الاسرية الحميمة، التى تربطنى به، لا يريد ان يجامل على حساب ما يعتقد انه الصحيح لقيامه بواجبه كرجل مسؤول.. وفى الحقيقة لقد اشتهر قريبى هذا بدرجة عظيمة من الاستقامة والجدية والنهوض بالواجب بروح التقدير الكامل للمسؤولية..

رجعت للعاصمة وواصلت نشاطى السياسى، بعد ان اصبحت متفرغا لهذا النشاط تماما.. ولا اذكر الان إن كان هذا التفرغ قد تم بناء على قرار من الحزب الشيوعى السودانى بعد المناقشة اللازمة ام ان الامر اصبح بالنسبة لى واقعا بعد ان فقدت وظيفتى! من الناحية النظرية كان لا بد من توفر شروط معينة لدى الكادر الحزبى لكى يصبح محترفا سياسيا.. واهم تلك الشروط استيعابه للنظرية الماركسية اللينينية، بكل ما يعنيه هذا الاستيعاب، واخلاصه ومقدرته على القيادة، وصلابة عوده. ولكنى اذكر ان الامر الواقع كان كثيرا ما يفرض نفسه، ويصبح الشخص محترفا تلقائيا متى ما فقد عمله بسبب نشاطه السياسى. صحيح ان الذين يفقدون اعمالهم، كانوا من القادة النقابيين، فى الغالب الاعم، ولهذا فهم على درجة من القدرة والكفاءة، وبهذه الصفة اكتسبوا قدرا من القدرة القيادية والكفاءة والمعرفة الثورية، اضافة الى ان الواحد منهم كان فى الاغلب الاعم، عضوا فى الحزب قبل فقدان عمله.. ذلك ان اختيار الحزب لعضويته كان يتم فى الغالب من بين القادة النقابيين.. ولكننى مع ذلك اذكر ان قضية الاحتراف، السياسى، كانت فى وقت من الاوقات مثار نقاش.. وكان الرأى السائد وقتها هو وجوب ان تخضع عملية الاحتراف السياسى لمعايير دقيقة تتطلب ان يكون المحترف السياسى، على درجة عالية من القدرة التنظيمية، والنضج الفكرى، وان تستوجب وجود المحترف، الحاجة الفعلية للعمل.. والذى دفع لهذا الجدل، هو كثرة عدد المحترفين فى فترة من الفترات، من الذين يفقدون وظائفهم، مع ضعف امكانات الحزب وقدراته المالية، التى تستجيب لمتطلبات حياتهم ومعيشتهم والتزاماتهم الاسرية. مما كان سببا مباشرا، فى بروز بعض حالات التبطل، ومظاهره الضارة..

المرحوم الاستاذ عبد المنعم حسب الله، كان واحدا من الوطنيين المناضلين ضد الاستعمار.. وقد اسس صحيفة اسماها «الجهاد» كانت واحدة من الصحف المعبرة عن الامال والطموحات الوطنية.. ولكن يبدو انه لم يستطع منفردا الاستمرار بها، وكان الحزب الشيوعى يفتقر الى الاعلام العلنى المستقل، فاتفقت قيادته مع الاستاذ عبد المنعم على الاستمرار

احتراف العمل السياسي

فى اكتوبر عام ١٩٥١ بدأت مرحلة اعتبرها مرحلة هامة من مراحل تجربتى فى الحياة.. ذلك لان هذه المرحلة قد جاءت بعد قدر لا بأس به من الوعى العام، وذخيرة لا بأس بها من التجارب العامة المتنوعة.. وقد امتدت هذه المرحلة سبع سنوات كاملة، حفلت بنضال ـ برغم ما اكتنفته من مشاق وتضحيات ـ كان محببا للنفس.. لانه كان نضالا مرتكزا على قناعات فكرية قوية، وايمان بقضايا الوطن لا تشوبه شائبة، وقدر عظيم من الايثار ونكران الذات.. ولانـه فوق هذا كله لم يكن نضـالا فرديا، بل كان نضالا فى قلب الجمـاعة المناضلة، الملتزمة بذات الفكر والهدف، والمسلحة بنفس الايمان النظيف بقضية الوطن، ثم هو فى النهاية رمز لنضال شعب وكفاح امة تروم التحرر من قبضة الاستعمار لقد كنت ومنذ عهد مبكر ولا زلت اؤمن بفعالية عمل الجماعة.. ووفق هذا الايمان كان اسهامى المتواضع، فى بناء تنظيمات فئوية وسياسية واجتماعية وتعاونية، للحد الذى اصبح فيه هذا الاسهام واقعا هو جماع تجربتى فى مشوار الحياة.

لم يكن فى الامكـان ان اعـود مرة اخـرى لمهنة التدريس، برغم ان المـدرسـة التى انتـدبت منهـا لكلية المعلمين الوسطى مدرسة اهلية ـ هى الاحفـاد.. وذلك لسببـين ـ الاول هو ان العقوبة التى وقعت علينا لم تكن الفصـل من مدرسـة السنتـين وحسب بل كانت ايضا الشطب من كشف المعلمين. والثانى هو ان ادارة مدارس الاحفاد، وعلى رأسها آنذاك الاستاذ يوسف بدرى، لم تكن ترغب فى وجودى معلما بمدارسها، لسبب اسلفت ذكره، وسيـأتى تأكيـد له فيمـا بعد.. فحاولت ان التحق مفتشا للغيط بمشروع الجزيرة.. وقد شجعنى على اتخاذ هذا الاتجاه سببان ـ الاول هو ان عددا من زملائى المعليمن كانوا قد التحقوا بذات الوظيفة. والثانى هو ان موظفا، تربطنى به صلة قرابة حميمة، كان يتولى منصبا إداريا على درجة عالية من الاهمية بمشروع الجزيرة.. وكنت على ثقة انه سيستطيع ان يأمر باستيعابى دون شك.. وحزمت امرى وتوجهت لبلدة بركات ـ رئاسة مشروع الجزيرة ـ حيث كان مقر عمـل وسكن قريبى ذاك.. وتحدثت معه موضحا رغبتى فى الالتحاق بوظيفة مفتش الغيط.. فرد على فى وضوح شديد ـ بدون لف او دوران ـ ان امثالى لا يصلحون لوظيفة مفتش الغيط ـ ذلك اننى ـ فى رأيه ـ شاب اجتماعى، وهذه الصفة لا تتناسب ووظيفة مفتش الغيط الذى يجب ان يحتفظ بمسافة بينه وبين الزارعين، لكى يكون مهابا مسموع الكلمة ومطاعا.. كانت

بالجريدة، فوجدت نفسى من العاملين فيها، ولا اذكر الآن كيف تم ذلك!.. كان العمل لاصدار الجريدة شاقا جدا.. فلم تكن هناك امكانات لاستخدام عاملين بصورة رسمية، الامر الذى جعلنا نقوم بكل الاعمال التى يتطلبها إصدار الصحيفة، لدرجة اننا كنا نحملها على الاكتاف لنوزعها على الاكشاك او نسلمها لمحطة السكة الحديد او لباعة الصحف المتجولين.. وكان الاتفاق مع الاستاذ عبد المنعم يقضى بان يكون نصيبه من المال هو حصيلة بيع الصحيفة بكشك ام درمان.. فقد كان هذا الكشك الاكثر توزيعا للصحيفة..
لم تطل فترة عملى فى جريدة الجهاد، فقد تقرر ذهابى لمديرية النيل الازرق لتنظيم المزارعين..

■ ■ ■ ■ ■ ■ ■ ■

الفصل الخامس

حركة المزارعين

مشروع الجزيرة
"خلفية تاريخية"
الحزب الشيوعى وحركة المزارعين
اتحاد مزارعى الجزيرة والمناقل
اتحادات المزارعين فى المشاريع الخاصة
جريمة مشروع جودة
محاكمة قضية مشروع جودة .

بالبحر الاحمر، ذات اتصال سهل بداخل البلاد، حتى يجد السودان فرصة الحصول على إحتياجاته من الخارج، وتصدير منتجاته.»

ومنذ العام ١٩٠٣م عملت الحكومة، على تشجيع الاستثمار الخاص في الزراعية، على طول مجرى نهر النيل .. وفي هذا العام جاء للبلاد رأسمالى أمريكي يدعى ليغ هنت LEIGH HUNT واتصل بالسير ونجت ـ الحاكم العام ـ عارضا امكاناته المالية، للاستثمار في السودان .. فرحب ونجت بذلك أيما ترحاب، ومنحه على الفور عشرة آلاف فدان في منطقة الزيداب. وفي عام ١٩٠٤م بدأ المستر هنت تأسس الشركة الزراعية السودانية، وأدخل معه كمساهمين بعض التجار الرأسماليين الانجليز، وبخاصة شركة ويرنر بيت WERNHER BEIT. وبدأت هذه الشركة اعمالها، وتم تركيب الطلمبة الأولى في الزيداب عام ١٩٠٦م لتروى مساحة سبعين فدانا قطنا .. وفي العام الذى يليه زيدت المساحة المزروعة الى ثمانمائة فدانا قطنا وثمانمائة فدانا اخرى قمحا ... وكانت الشركة التى تم تأسيسها بصورة رسمية، تحت أسم «الشركة الزراعية السودانية» في هذا العام، قد استعانت بعمال مصريين، وزنوج امريكان، في تسوية الأرض وشق القنوات. وكان يسكن الزيداب في ذلك العهد حوالى ستمائة مواطنا، يعتمدون في حياتهم على السواقى المنصوبة على شاطىء النيل.

وفي عام ١٩٠٨م زيدت المساحة المزروعة إلى الف وثلثمائة وثمانين فدانا (١,٣٨٠) قطناً والف ومائتى فدانا ١,٢٠٠ قمحا .. واستفاد الاهالى برى الف واربعمائة ١٤٠٠ فدانا من أراضيهم بنظام دفع أجرة الماء للشركة. لقد برهن قطن السودان للغزالين في مصانع لانكشير البريطانية، على انه الأجود نوعا، والأرخص سعرا لاسيما بعد فشل محصول القطن المصرى والامريكى في عام ١٩٠٩م

ان نجاح تجربة زراعة القطن في الزيداب، وقبلها في طوكر، جعلت الحكومة تفكر في استغلال سهل الجزيرة، الممتد بين النيلين الابيض والازرق. ٢٠٠ ميلا طولا و٨٠ عرضا .. ولكن كان لابد في هذه الحالة، من طلب المعونة المالية من الحكومة البريطانية .. فكان رد المستر أسكويث ASQUITH رئيسها آنذاك مايلى:

«ان هذا الامر ليس هاما فقط لمصانع لانكشير، ولكنه هام بنفس القدر لبريطانية العظمى، وكل الامبراطورية البريطانية، لدرجة اننا يجب ان نضاعف الجهود، للحصول على القطن الخام، وزيادة مساحته المزروعة».

وبدأ العمل في الجزيرة في عام ١٩١١م بتأجير ستمائة فدانا من المواطنين بمنطقة طيبة، تحت إدارة الشركة الزراعية، لتطبيق تجربتها

الفصل الخامس

حركة المزارعين

مشروع الجزيرة
خلفية تاريخية

لا شك ان الاستعمار البريطاني. قد تعرف بصورة كاملة، على ثروات السودان الطبيعية، وامكاناته الاقتصادية الكبيرة، منذ فترة الحكم التركى المصرى في البلاد، بواسطة عملائه من كبار موظفى ذلك العهد من البريطانيين وغيرهم ... ومن هنا كان حرص الانجليز على تقويض استقلال السودان، منذ الوهلة الأولى لانتصار الثورة المهدية، على جيوش التركية السابقة، ومقتل غردون، ورجوع حملة انقاذه لمصر عام ١٩٨٢م .. منذ ذلك الوقت بدأ الاستعمار يعد جيوشه لغزو السودان تحت قيادة اللورد كتشنر، الأمر الذى نجحوا في تحقيقه بعد ستة عشر عاما فقط من نجاح ثورة السودان، وكان ذلك في العام ١٨٩٨م .. وقبل ان يستتب الأمن تماما، شرعت السلطة الاستعمارية، في اجراءات إستغلال إمكانات البلاد ففى الفترة من ١٨٩٩ ـ ١٩٠٣ قام مهندس بريطاني يدعى وليام قارستن GARSTIN بإكتشاف إمكانات الرى المستقبلية لكل مجرى النيل ـ وفي عام ١٨٩٩ اصدرت الحكومة قانون الأراضى، وتم تشكيل اللجان للتسويات ... وفي تقريره السنوى لعام ١٩٠٠ كتب اللورد كرومر معتمد الحكومة البريطانية في مصر لحكومته ما يلى:

«ان الاحتياجين الملحين في السودان هما:

أولاً: زيادة عدد الموظفين البريطانيين

ثانياً: توفير المال اللازم لأعمال الرى ومد خطوط السكك الحديدية»

وفي استعراض لسياسته في نفس العام، يقول السير ونجت حاكم عام السودان مايلى:

«ان واجب الحكومة هو توفير الأمن للمواطنين على أرواحهم وممتلكاتهم، وتحسين المواصلات التى تربط مناطق الانتاج، بالمناطق ذات الكثافة السكانية، والاستفادة من وسائل الرى الصناعي، لاستغلال خصوبة الأرض، والاهتمام بالمواصلات النهرية، والسكك الحديدية، وإنشاء ميناء

الناجحة في الزيداب ... ولما لم يقبل المواطنون في طيبة على المشروع، استعانت الحكومة بمزارعين من منطقة الزيداب ... ونجحت التجربة، وزيدت المساحة في الموسم الجديد إلى ٢٠٠٠ فدانا فأقبل الأهالى بعد ذلك على طلب الحواشات.

لقد كان النظام المالى المتبع في الزيداب وطيبة، لتحديد علاقة المزارعين بالحكومة والشركة هو ان يكون نصيب صاحب راس المال وهو الحكومة ٦٠٪ والمزارعين ٤٠٪ على ان تدفع الحكومة من نصيبها للشركة مقابل راسمالها وادارتها .. وواضح ان هذه النسب تتأثر صعودا وهبوطا بالانتاج والأسعار .. أما الأسعار فتحددها الحكومة والشركة بالانفاق مع اتحاد منتجى القطن البريطانى

BRITISH COTTON GROWING ASSOCIATION

ولا رأى للمزارع في تحديد هذه الاسعار.

وفي يونيو ١٩١٣م استدعى اللورد كتشنر كلا من السير ونجت حاكم عام السودان، والمستر مكفلفرى MACVILLIVRAY مندوبا عن الشركة الزراعية لمصر، وقدم لهما المقترحات الآتية، كأساس للعمل في مشروع الجزيرة، بديلا عن اتفاقية طيبه وهي:

(١) على الحكومة ان تتكفل بايجار الارض من الاهالى، واعمال الرى والمنشات الأساسية، والترع الرئيسية.

(٢) على الشركة الزراعية، أن تنوب عن الحكومة في توزيع الحواشات على المزارعين ، وتدير المشروع، وتشرف على الزراعة، وتوفر السلفيات للمزارعين.

(٣) يقسم صافى انتاج كل مزارع على الوجه التالى:

٣٥٪ للحكومة ...

لتغطية فوائد السلفية، وقيمة السماد، وصيانة اعمال الرى والقنوات ودفع اجرة الارض.

٢٥٪ للشركة الزارعية ...

لتغطية نفقات الطرق، وتصريف المياه والقنوات الفرعية، ونظافة وتسوية الأرض، ودفع مرتبات مفتشى الغيط والموظفين، وارباح الشركة.

٤٠٪ للمزارع.

لدفع نفقات العمالة والبذور وآلاليات والأدوات الزراعية وحراثه الارض وأرباح المزارع.

(٤) يسرى هذا الاتفاق لفترة خمسة سنوات قابلة للتجديد خمسة سنوات اخرى.

في ٢١ يوليو ١٩١٣م عقد اجتماع في لندن، ضم اللورد كتشنر والسير ونجت ومستشارى الحكومة في جانب، ومديرى الشركة الزراعية في الجانب الآخر. وفي هذا الاجتماع تمت الموافقة على اتفاق القاهرة، على ان يخضع هذا الاتفاق للاختبار في السودان الشتاء القادم..

وعندما ارادت الشركة تطبيق هذا الاتفاق الجديد، في مشروع طيبة، رفضه المزارعون، ورفعوا عريضة للحكومة مهددين بترك الحواشات، ومطالبين بتعويضهم عن الأموال التى صرفوها في الزراعة .. واضطربت الاحوال، الأمر الذى جعل الميجر دكنسون، مدير النيل الازرق آنذاك، يهتم شخصيا بالمشكلة، ويرفع تقريراً يوضح فيه ان المزراعين، بالاتفاق الجديد، يفقدون في الواقع ٧٠٪ من ارباحهم، بالمقارنة مع ما كان عليه الحال بالاتفاق السابق .. وإزاء هذا الوضع تم تعويض المزارعين .. ولكن الحكومة اصرت على تطبيق الاتفاق الجديد، على أساس الشراكة، وليس تأجير الأرض. وزادت الشركة المساحة المزروعة في طيبة لألف فدانا. وفي عام ١٩١٤ اقامت الشركة على حسابها مشروعا آخر في منطقة بركات مساحته ٢٠٠٠ فدانا .. وفي نفس العام، وافق البرلمان الانجليزى على منح حكومة السودان سلفية قدرها ٣ مليون جنيه، يخصص منها ٢ مليون لبناء خزان سنار .. وبدأ العمل بالفعل في شق الترعة الرئيسية في اول يناير ١٩١٤ .. ثم توقف نتيجة لاندلاع الحرب العالمية الاولى.. وكان لهذا التوقف أثر إيجابى، إذ انه أتاح الفرصة لمزيد من التجريب، واكتساب الخبرة في مشروعى طيبة وبركات .. ولكن كان هناك أثر سلبى بجانب هذا الأثر الايجابى ـ وهو ارتفاع تكاليف انجاز المشروع بعد نهاية الحرب. وفي ١٩٢٦ افتتح الخزان رسميا، وبافتتاحه بدأ التوسع المضطرد في المساحة المزروعة، واكبر امتداد حدث في المشروع هو امتداد المناقل في ١٩٥٠م..

كان معظم الموظفين في المواقع الهامة، من البريطانيين .. كان عددهم حوالى المائة في وظائف مفتشى الغيط، ومديرى الاقسام، وفي رئاسة المشروع ببركات .. لقد كان الاعتبار الاول لاختيار الوظفية هو قوة الشخصية .لا التأهيل الفنى او المهنى ـ ذلك ان المطلوب في التعامل مع المزارعين هو قوة الشخصية، الامر الذى يرمز الى اتجاه القهر والجبروت في تعامل ادارة المشورع مع المزارعين .. وكان المسؤولون الانجليز في ادارة المشروع، يقاومون اى اتجاه لتوظيف سودانيين كمفتشى غيط مكان لبريطانيين، بحجة ان الآخرين سيشعرون بعدم الاطمئنان لمستقبلهم، وسيشعر المزارعون انفسهم بعدم الاستقرار، وستكون لذلك آثار سيئة على الانتاج في المشروع، كما كانوا يزعمون!

١٩٤٧م

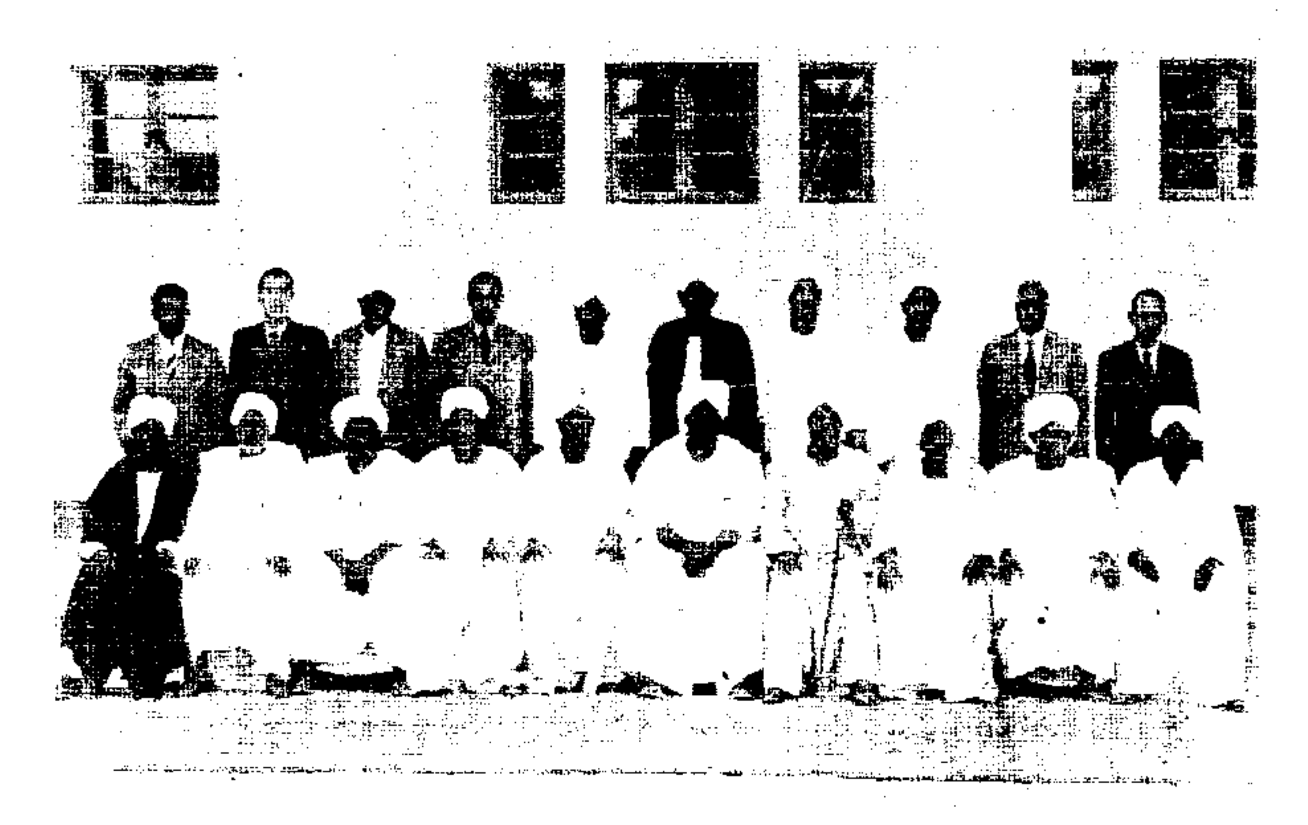
وعلى عهد الشركة الزراعية تكونت هيئة تمثيلية للمزارعين في مايو TENENTY'S REPRESENTATIVE BODY - وكان الغرض من تكوينها ان تكون حلقة الوصل بين المزارعين وادارة المشروع، لتساعد على حل المشكلات والخلافات وذلك بعد الاضراب الذى اعلنه المزارعون في العاشر من يوليو ١٩٤٧م بسبب خلافهم مع الشركة الزراعية بشأن التصرف في مال احتياطى المزارعين.

وبعد انتهاء عقد الشركة في العام ١٩٥٠م تغير اسم هذه الهيئة في مايو عام ١٩٥٢م ليصبح «هيئة المزارعين» TENENTS ASSOCIATION وكان أول رئيس لها، المرحوم احمد بابكر الازيرق، طيب الله ثراه. وواضح ان تغيير الاسم، لم يكن امرا شكليا .. ولكنه جاء كمحاولة لاظهار هذه الهيئة، بمظهر الجهاز، الممثل لمصالح المزارعين، لاسيما وانه في هذا الوقت، بدا طرح شعار المطالبة بقيام اتحاد للمزارعين.

الحزب الشيوعى وحركة المزارعين

بدأت العمل مواصلة لجهود تنظيم حركة المزارعين في أوائل عام ١٩٥٢ .. وكان قد سبقنى للجزيرة الصديق حسن سلامة، الذى بذل جهدا كبيرا، في ايجاد مراكز حزبية، لتنظيم حركة المزراعين .. ولكنى عندما وصلت لود مدنى كان قد غادرها للابيض - كما علمت -

لقد كان وضع الحزب في ود مدنى، والجزيرة عموما، ضعيفا .. فلم يكن الحزب، قد استطاع بعد، بناء قواعد ثابتة وسط المزارعين .. وعليه فقد كان الواجب الاول الذى وضعناه نصب اعيننا، هو سرعة بناء هذه القواعد، في مديرية النيل الأزرق عموما، ومنطقة الجزيرة على وجه الخصوص ... ولهذا فقد انصب جل الاهتمام، على التنظيم الداخلى للحزب .. فتكونت لجنة المديرية من الاخوة ... حسان محمد الامين، وخليفة خوجلي، وصديق حمد، وعبد الحليم عمر، وعبد اللطيف محمد بشير الشهكير «بكمراد»، ويعقوب عيسى جفون، وشخصى .. وكانت قيادة متماسكة بحق .. تربط بين افرادها، زمالة نضال شاق، في ظروف القهر الاستعمارى، ووحدة فكرية قوية، واخلاص لا تحده حدود، لقضايا الوطن، واستعداد كامل للتضحية، بكل شئ في سبيل المبدأ والهدف .. وكانت صلاتنا، على المستوى الشخصى، صلات



* اعضاء اللجنة المختارة لوضع قانون مشروع الجزيره بعد انتهاء عقد الشركة الزراعية عام ١٩٥٠م .

*الجالس في الصف الامامى وهو يمسك بعصا هو المرحوم احمد بابكر الازيرق رئيس هيئة المزارعين ، والرابع من اليمين من الواقفين هو السيد/محمد العوام نمر مستشار الهيئة .

صداقة حميمة، وود اخوى .. وكنا جميعنا ـ عدا الاخوين خليفة وصديق ـ محترفين سياسيين ـ وكان الاخ عبد الحيم عمر المسؤول التنظيمي للمديرية، بينما كنت المسئول السياسي ـ كانت الخطة عموما تقضي ـ كما سبقت الاشارة ـ بتأسيسي قواعد ثابتة وقوية للحزب، بقدر ما تسمح بذلك قدارتنا .. وفي هذا الاتجاه، نعطى اهتماما خاصا، لمعلمي المدارس الأولية، وعمال الري ... وذلك على اعتبار ان هاتين الفئتين، منتشرتان في انحاء الجزيرة المختلفة، إضافة إلى أنهما عموما، فئتان متعقدمتان وعيا وثورية .. وعن طريق هاتين الفئتين في البداية، يتيسر الوصول للمزارعين، وتأسيس قواعد للحزب في القرى.. وكانت الخطة تقضي ان نعمل في ذات الوقت، على كشف الوضع الاقتصادى السيء للمزارعين، الناتج عن تطبيق نظام الشراكة الظالمة، في حقهم مع إدارة المشروع، وكشف حقيقة هيئة المزراعين ـ التي كونتها إدارة المشروع ـ على انها تنظيم عميل للادارة، ولا يعمل لتحقيق مصالح المزارعين بقدر ما يهتم بضمان مصالح اعضائه، من اغنياء المزارعين. ولهذا يصبح واجبا، اسقاط هيئة المزراعين، وقيام اتحاد عام للمزارعين يبنونه بأنفسهم، ويختارون قيادته بحريتهم، ممن يثقون في إخلاصهم.

وفي الجانب الفكرى، كان علينا ان نجرى دراسة تفصيلية، لاحوال المزارعين الاقتصادية، ولقانون مشورع الجزيرة، الذى يحكم العلاقات بين المزارعين والحكومة وإدارة المشروع، ويحدد الحقوق والالتزامات، لهذه الأطراف .. كما كان علينا ان نحدد بالدراسة، الأقسام المختلفة وسط المزارعين، من حيث حالتهم الاقتصادية ـ فقراء ومتوسطين واغنياء ـ وهذا التقسيم قائم على إعتبار، عدد الحواشات، التى يمتلكها المزارع، ومساحة الحواشة، ومصادر الدخل الأخرى .. فبعض المزارعين يعملون بالتجارة مثلا .. وكنا نهتم ايضا بأوضاع العمال الزراعيين، على اعتبارهم اكثر عناصر الريف بؤساً وضنكا، ولابد من السعى لتنظيمهم أيضاً، ليكونوا صمام الامان لاستمرارية حركة المزراعين الثورية .. لقد حاولنا ايضا الاستفادة من التجارب والخبرات الاجنبية، في نشاطنا في الريف .. فقرأنا عن حركات المزارعين، في الصين والهند وسوريا مثلا ـ ومن كل ذلك أصبح لدينا أساس فكرى، لا بأس به، يستند عليه نشاطنا وسط المزراعين.

وفي الجانب التنظيمي، قسمنا مديرية النيل الازرق، لعدد من الدوائر، عبارة عن المدن الكبيرة، مثال ـ مدني ـ الحصاحيصا ـ سنار ـ كوستي ـ الدويم ... وفي إطار هذه الدوائر، عدد من الخلايا في الاحياء والقرى وقناطر الرى .. وقسمنا مسئوليات القيادة، على الكوادر المتفرغة من أعضاء لجنة المديرية، وغيرهم من الكوادر القيادية ـ وكان علىّ ـ كمسئول سياسي ـ عبء

أكبر في عملية القيادة والاشراف .. فقد كنت أطوف على الدوائر والخلايا، مرة في الاسبوع، على شمال الجزيرة، واخرى على جنوبها، ولينعكس كل النشاط في الاجتماع الدورى الاسبوعى للجنة المديريه حيث يعود كل القيادين من طوافاتهم على الخلايا والدوائر .. كان على كل لجنة دائرة، او خلية، مسؤولها السياسى والتنظيمى - وكان على كل هذه الاجهزة، ان تعقد اجتماعين في الاسبوع - اجتماع تنظيمي: يستعرضون فيه اوجه نشاطهم، وانجازاتهم مع الاهتمام بشكل خاص - بتجنيد عناصر جديدة لعضوية الحزب، وتأسيس خلايا ودوائر جديدة. واجتماع دراسى: تتم فيه دارسة بعض الكتب الماركسية، إضافة إلى النشرات الفكرية والتنظيمية الداخلية - "الوعى" - "الكادر".

لقد كان العمل شاقا، لاسيما فى البداية.. فقد كان علينا ان نبدأ من لاشىء تقريبا، وبلا امكانات.. وبدأنا نتصيد العناصر اصطيادا.. كنت اقطع المسافة البعيدة، لأجد شخصا تعرفت على معلومة مشجعه عنه، ولم اكن اعرف غير اسمه.. وهنا لا انسى، اننى فى مرة من المرات، ذهبت لبلدة الحوش - بجنوب الجزيرة - ومعى اسم احد المزارعين، وبدعى بانقا، ولم اكن قد رايته من قبل، ولا اعرف شخصا غيره فى البلده، بل انها كانت المرة اولالى التى ازور فيها الحوش، ولما سألت عنه، علمت انه ذهب لمدنى، فى مهمة خاصة، ولن يعود الا مساء الغد. ولا توجد مواصلات من الحوش لمدنى فى المساء، فما كان امامى، الا ان اقضى ليلتى تلك جوعان، على ظهر احد اللوارى، الواقفة فى ساحة سوق البلدة - كنا نتحصل على قيمة اجرة العربة، من المكان الذى نزوره، للمكان الذى يليه، فلم نكن نملك فائض مال. وكان الواحد منا عندما تتسخ ملابسه، يغسلها فى المساء، بعد الفراغ من الاجتماعات، ليلبسها فى الصباح وهو فى طريقه للمكان التالى. فلم نكن نحمل الا ما على اجسامنا من ملابس - والذى يضاعف من مشقة هذا الجهد، انه يتم بهذه الصورة، فى ظروف العمل السرى، وملاحقة البوليس. وفى عملية بناء قواعد الحزب فى الجزيرة، لابد من الاشارة، للجهود الناجحة والمؤثرة، التى قام بها بعض الاخوة المهنيين من الشيوعيين، الذين عملوا بمنطقة الجزيرة، ومن موظفى الجزيرة من الشيوعين والمتعاطفين منهم - من امثال - يحيى عبد المجيد وعبد الله محمد ابراهيم، ومرتضى احمد ابراهيم، والمرحوم محمود محمد على وغيرهم - وحقيقة كانت هناك حلقة واسعة من المتعاطفين مع الحزب، نتيجة

قياداتها الطبيعية، من امثال، يوسف احمد المصطفى، والمرحوم احمد على الحاج، وعبد الرحمن الماحى، واحمد الماحى، والمرحوم الطيب محمد الامين، والمرحوم حسن على، وداؤد، وبرقاوى، ومهدى حسين، والطيب النيل وغيرهم كثيرون، شباب وشيوخ آمنوا بقضيتهم، فاستلموها بايديهم الخشنه القوية، واصبحوا هم القيادة الحقيقية لحركة المزارعين.. ثم استوعبنا معظم هذه القيادات فى عضوية الحزب، وبدأنا عملية تثقيفها بالنظرية الماركسية، وتدريبها تنظيميا. ان عامل الاعجاب بكوادر الحزب المتفرغة، من حيث المشقة التى يتحملونها فى العمل، والتضحيات اللامحدودة التى يبذلونها، والشجاعة واللامبالاة بالمخاطر ـ كان هذا عاملا ذا اثر كبير، فى هذا القبول المتزايد لعضوية الحزب. كما ان شعارات الدفاع عن مصالح المزارعين، وكشف حقائق الظلم الواقع عليهم، وفكرة العمل لتأسيس اتحاد المزارعين، بعيدا عن سلطة ادارة المشروع والحكومة، ليدافع عن مصالحهم، وجدت قبولا سحريا، وسرت كالنار فى [illegible].. وامتدت الحركة من وسط الجزيرة، لبقية مناطقها فى الشمال والجنوب والغرب.. وهنا ايضا برزت قيادات، كان لها اثر كبير فى انجاح حركة المزارعين، من امثال ـ حامد، وابو سنينه، وبانقا، ومحمد حمدين، وجابر، وعبد الله دفع الله، وعبد القادر حموده، وغيرهم وغيرهم ـ كثيرون هم طيب الله ثرى من فارق ديارنا منهم، وبارك فيمن بقى على قيد الحياة.

وفى هذا الطور، بدأنا نعقد الاجتماعات الجماهيرية العلنية فى فسحات مكاتب التفاتيش، واجتماعات الخلايا للكوادر الحزبية فى البيوت، او فى الخلاء اذا تعذرت البيوت لاى سبب من الاسباب ـ فقد كانت هذه الاجتماعات الحزبية سرية ـ وعندما انتشرت الخلايا فى القرى وقناطر الرى، بصورة كبيرة، اصبح مستحيلا الوصول لها جميعا بشكل مباشر، ولجانا الى التركيز على المدن والقرى الكبيرة، وهى قرى الاسواق، ونكون فيها لجان دوائر، من كوادر مقتدرة، نترك لها قيادة الخلايا، كل فى نطاق دائرته، وهذه الدوائر تعمل تحت قيادة الكادر المتفرغ.. ومن تلك المدن والقرى الكبيرة (قرى الاسواق)، طابت، المحيريبا، المدينة عرب، الحوش، ابو عشر، الكاملين، الترابى، [illegible] وغيرها... وهكذا اتسعت دائرة نشاطنا فى مجالى التحرك الجماهيرى، و[illegible] الحزبى.. وقد تطلب ذلك بذل جهود خارقة، لمتابعته، وقيادته، وتطويره وبرغم بذل تلك الجهود المضنية، لم نكن [illegible] بتعب [illegible] ارهاق، [illegible] الصعوبات الجمة التى واجهتنا، لم نستسلم، [illegible] يعرف الوهن الى [illegible] وعزائمنا سبيلا.. كنا نستعمل كل وسائل النقل [illegible] من مدينة لاخرى [illegible]

الاعجاب بجهود وتضحيات كادره، او بعض الايمان بالفكر والاهداف، التى يطرحونها.. لقد ساعد هؤلاء بفعالية فى تذليل صعوبات ضعف الامكانات، بدفع تبرعات عينية ونقدية سخية، وتقديم مساعدات مختلفة، كانت ضرورية لنشاط الحزب. وبكل هذه الجهود، التى كان فى قلبها، دفع الكادر المتفرغ، استطعنا بعد فترة ليست طويلة بان نضع اقدامنا على الطريق الصحيح، فى بناء الدوائر والخلايا، لاسيما بعد ان استطعنا الوصول لبعض العناصر النشطة من بين المزارعين انفسهم.. وهنا لابد من ابراز الدور النشط، الذى لعبه واحد من هذه العناصر، هو المرحوم الامين محمد الامين.

قابلت الامين لأول مرة فى ود مدنى، امام مكتبة (السلام) التى كان يديرها الاخ حسان محمد الامين.. وقد جاء للمدينة لاكمال بعض الاجراءات المتعلقة بادائه فريضة الحج.. وتحدثت معه حول قضايا المزارعين، وضرورة قيام اتحاد لهم، يرعى مصالحهم، ويزيح عن كاهلهم ظلم السنين.. فاستجاب لحديثى فى حماس شديد، واتفقنا على ان نلتقى فى قريته "معيجنه" بمنطقة الحلاويين، بعد ادائه فريضة الحج.. والتقينا، وتعددت بعد ذلك بيننا اللقاءات.. وكان جل الحديث فى البداية، منصبا على قضايا المزارعين.. وكواحد من مزارعى الجزيرة، غير ميسورى الحال، كان الامين ملما بالكثير من اوجه الغبن الواقع على جماهير المزارعين، لاسيما الفقراء، ومتوسطى الحال منهم - وهؤلاء هم الاغلبية الساحقة المسحوقة.. وكان الامين - طيب الله ثراه - رجلا سريع الادراك وشجاعا.. انه - كغيره من السواد الاعظم من المزارعين - لم ينل قسطا من التعليم يذكر، ولكن ذلك لم يحل دونه وحسن التفكير ووزن الامور برجاحة عقل، وسرعة البت، واتخاذ القرار، فى كل الظروف، كان شابا ثوريا بحق، قوى الشخصيه، سريع البديهة وبعد اللقاء به اتخذ مسار عملنا وجهة جديدة.. ذلك اننا بدأنا عملا شعبيا فى شكل لقاءات شبه علنيه، يدور الحديث فيها عن المظالم الواقعة على المزارعين، وسوء هيئة المزارعين العاجزة تماما عن رعاية مصالحهم، بل والمتآمرة مع ادارة المشروع، نظير ما يتمتع به اعضاؤها من امتيازات، واوضاع اقتصادية واجتماعية ممتازة، وازاء هذا الوضع اصبح واجبا قيام اتحاد للمزارعين، يوحد جهودهم، من اجل تحقيق وضع اقتصادى افضل لهم - وكان هذا التناول للموضوع، يجد استجابه عظيمة.. وكنتيجه لهذه اللقاءات، اصبحت العناصر من المزارعين انفسهم، تتحرك بنشاط وفعالية فى قراها ومناطقها.. واصبحت منطقة الحلاوين قلعة قوية فى حركة المزارعين الصاعدة باندفاع بعد. وكانت قرى معيجنة، والكتير، وصراصر، وطابت، وحلة مصطفى، ... فى، وكتفية، والمحيريبه، وغيرها من القرى، قلاعا قوية للحركة، بفضل

قرية للتى تليها - الدرجة الرابعة بقطارات الركاب، وعلى اللوارى التجارية مع البسطاء من المواطنين، وبالدراجات، وعلى الارجل، صيفا وخريفا وشتاء، بالليل والنهار وكنا نرتدى الزى الوطنى - الجلابية والعمامة، لكى لانثير شبهة، او نلفت انتباه ذوى الفضول.. كنت [illegible] الخريف. عندما اكون مضطرا للسير ليلا من قرية لاخرى، اشتاق لمعان البرق، ليكشف لى الطريق امامى بضع خطوات، ولاتجنب الثعابين، التى كثيرا ما كانت توجد فى الطريق قرب قنوات الرى.. وفى الوقت الذى لا يوجد فيه عمل للعمال الزراعيين فى الحواشات، يتحول بعض هؤلاء لقطاع طرق ليلا.. وهنا اذكر اننى والاخ عبد الحليم عمر كنا نقطع الطريق على دراجه من قنطرة المسلمية، لقنطرة اخرى لاتبعد كثيرا، لنعقد اجتماعا لاحدى الخلايا.. وعندما انتهينا كان الليل قد ارخى سدوله، وكان الفصل خريفا، وبدأنا مشوار العودة فاذا بالمطر ينهمر مدرار واذا بنا نضطر لحمل العجلة اللعينة على كتفينا بالتناوب..

وكانت عملية شاقة بحق!.. ونحن نسير بمحاذات احدى الترع الرئيسية، اذا بنا نسمع اصواتا من على البعد، وبعد قليل نرى اشباح عدد من الاشخاص يسيرون فى اتجاهنا، فما كان من الاخ عبد الحليم، الا ان خلع ساعة يده ووضعها داخل حذائه، خوفا من ان يكون القادمون قطاع طريق!.

ادلته هذا الاعتقاد - ولكن الله سلم، فقد مروا بنا دون ان ينالنا منهم مكروه.. فما كنا نستطيع الدفاع عن انفسنا بفعالية، فلم نكن نحمل معنا - كعادتنا وقتذاك - اى وسيله من وسائل الدفاع عن النفس، سوى الاقناع والاقتناع - وهو سلاح مفلول فى مثل هذه الظروف!! كنا عندما تتسخ ملابس احدنا اثناء الطواف الاسبوعى يقوم بغسلها بعد نهاية الاجتماع فى الليل، حتى يستعملها نظيفة صباح الغد!.. فلم نكن نحمل ملابس غير التى نرتديها!.. واذكر من المسافات التى كثيرا ما كنت اقطعها راجلا، المسافة بين بلدة الحاج عبد الله وود الحداد فى جنوب الجزيرة - ذلك ان القطار لا يتوفر دائما، وان طريق العربات الرئيسى المحاذى للترعة الرئيسية MAIN Canal بعيد جدا من الحاج عبد الله، اضافة الى احتمال الوقوف طويلا فى انتظار لورى، متجه لود الحداد. لهذا فقد كنت افضل، ان اقطع هذه المسافة راجلا، بمحاذات الخط الحديدى، لاسيما واننى عندما كنت احضر للحاج عبد الله، كنت احظى بعطف وعناية الزميل يحى عبد المجيد، الذى كان وقتها مهندسا للرى بالبلده، ويقيم فى منزل جميل مطل على النيل الازرق، فآكل معه واشرب مالذ وطاب - وكنت لهذا اشعر بلياقة بدنية ونشاط شبابى متدفق، مما

يجعلنى أطوى هذه المسافة، رغم طولها ـ طيا، ولا اشعر بالتعب او الارهاق، فقد كنت اثناء سيرى اردد الاناشيد الثورية الحماسية بصوت مسموع وفى السر احيانا عندما امر بأشخاص لكى لا يظن هؤلاء بى الجنون وكنت اثناء سيرى نهارا او ليلا لا التفت ورائى، اعتقادا بان ذلك دليل الشعور بالخوف!..

سبق لى ان ذكرت، انه عندما ازداد عدد الخلايا، واصبح مستحيلا اشراف الكادر المحترف عليها مباشرة، كونا لجان للدوائر فى المدن والقرى الهامة، ليقوم كادرها بالاشراف على هذه الخلايا.. وكنا نعين محترفين لمساعدة لجان الدوائر هذه.. واذكر فى مرة من المرات قررنا ان يشرف احد الاخوة المحترفين على دائرة الحصاحيصا.. واصطحبته معى فى طواف تعريفى بالخلايا فى تلك المنطقة، وقد شمل الطواف ابو فروع، وحلة مصطفى، وكتفية والمحبريبة، وابو عشر، وطابت، وصراصر، ومعحينة،ثم عدنا للحصاحيصا.. وكان صاحبنا قد تعرف على اعضاء لجنة الدائرة فى بلدة الحصاحيصا. وتعرف ايضا على مكان سكنه ، وكل ما يتعلق بالقيام بمهمته وعندما حان وقت انصرافى، لاتركه يتولى مسئولياته، اذا به يفاجئنى بقوله ـ يازميل والله انا ما شيوعى ريف، انا شيوعى مدينة! فأجبته ـ يازميل طيب ليه ماقلت هذا الكلام من الاول قبل ما نتعب التعب ده كله! وعدنا سويا لود مدنى.. ذكرت هذا لاوضح ان كادر الحزب لم يكن كله على قدر متساو من الاندفاع والحماسة والثورية، وكانوا مختلفين ايضا فى مقدراتهم التنظيمية وفهمهم النظرى، وهو امر طبيعى.

ظللنا لفترة طويلة نعانى من ضعف بل وانعدام امكاناتنا الذاتية فى عملية النشر الداخلى، والمخاطبة الجماهيرية.. كانت وسيلتنا الذاتية فى الطباعة وسيلة فى غاية البدائية.. ومع اتساع عملنا باتساع قواعدنا الحزبية، والحركة الجماهيرية، ازدادت حاجتنا لوسيلة للطباعة اكثر تقدما وقد نجحنا فى ذلك، بالحصول على ماكينة رونيو "جستتز" جديدة.. ولا تسألونى كيف!! وبهذا الانجاز العظيم، تطورت مقدرتنا فى النشر الداخلى للحزب، والتحريض الشعبى ـ فبدأت نشراتنا ومنشوراتنا تؤدى دورها الهام، توعية وتعبئة. وببروز هذا النشاط ازدادت ملاحقة البوليس لنا، وازدادت مجهوداته فى محاولة الوصول لمصدر النشرات والمنشورات، لملاحقة وكشف هذا النشاط "الهدام"! كانوا يركزون مراقبتهم وبحثهم، عندما يحل الظلام، اعتقادا منهم بان هذا النشاط السرى، لابد ان يؤدية اصاحبة فى جنح الليل.. فقد كانت عبارة ـ خفافيش الظلام ـكثيره الاستعمال عند الحديث عن النشاط الهدام!.. وكان عكس اعتقادهم هذا تماما هو الصحيح!.. اذا ان عمل

ثم بدأنا جهدا مكثفا للتوعية شمل كل اقسام وتفاتيش الجزيرة جميعها فى شكل لقاءات جماهيرية كنا نشرح فيها فكرة الاتحاد ودستوره، وهيكله التنظيمى، وصلاحيات اجهزته وواجباتها، وعلاقاتها وكيفية تكوينها وغير هذا من الامور الواجب تفهمها.. كل ذلك باسلوب بسيط سهل، نافذ لعقول المزارعين وقلوبهم.. ولتوسيع قاعدة المشاركة الديمقراطية، قسمنا المزارعين فى القاعدة لكليات انتخابية تتكون كل منها من مائة عضو، لينتخبوا ممثلا واحدا، ويتكون من هؤلاء الممثلين، مؤتمر التفتيش... ومن مؤتمرات التفاتيش يتكون مؤتمر القسم، ومن مؤتمرات الاقسام، يتكون المؤتمر العام لاتحاد المزارعين.. كنا نعقد خمس لقاءات جماهيرية فى خمسة تفاتيش مختلفة فى اليوم الواحد وبهذه الطريقة استطعنا ان نغطى كل اقسام المشروع ـ وبعد الفراغ من هذه الحملة التوعوية التعبوية، بدأ عقد المؤتمرات القاعدية والوسيطة، تمهيدا لانعقاد المؤتمر العام.. وعمت الجزيرة كلها وفى كل قرية من قراها، ومدينة من مدنها، حركة شعبية عارمة، ابرزت بوضوح وجلاء وحدة مزارعى الجزيرة وتماسكهم وتمسكهم باتحادهم ومطالبهم، ورفضهم القاطع لهيئة المزارعين، صنيعة ادارة المشروع.. وفى هذا المناخ الثورى، انعقد المؤتمر التأسيسى العام لاتحاد مزارعى الجزيرة ممثلا تمثيلا شاملا وحقيقيا لكل مزارعى الجزيرة فى جميع اقسامهم وتفاتيشهم، ولم يكتف المزارعون بارسال مندوبيهم للمؤتمر، الذى انعقد فى منزل ـ بالايجار ـ فى مدينة ود مدنى، بل ازدحمت المدينة باعداد كبيرة منهم جاءت لتتابع سير اعمال المؤتمر، زيادة في التأكيد على وقوف المزارعين صفا متماسكا خلف اتحادهم وقيادتهم الجديدة.. انعقد المؤتمر فى شهر اكتوبر من عام ١٩٥٣ وبحضور سبعمائة اثنين وتسعين عضوا يمثلون تفاتيش الجزيرة البالغ عددها اربعه واربعين تفتيشا وقتنذاك

وعلى مدى اربع جلسات ناقش المؤتمر واقر مشروع دستور الاتحاد ومطالب المزارعين وانتخب لجنته المركزية برئاسة الامين محمد الامين وسكرتارية يوسف احمد المصطفى وعباس حمد دفع الله لامانه الخزينه وقد اكد المؤتمر ثقته فى بقية اعضاء اللجنة التمهيدية السابق ذكر اسمائهم.

وتعبيرا عن التأييد والمساندة حضر المؤتمر مندوبون عن اتحاد العمال واتحاد مزارعى الشمالية واتحاد العمال السودانين بمصر.

لقد عبر هذا المؤتمر التأسيسى بحق عن وحدة مزارعى الجزيرة وتضامنهم واستمساكهم بحقوقهم وثقتهم فى قيادتهم

الطباعة كان يتم فى ساعات النهار.. وذلك لسبب بسيط للغاية هو انه فى الليل يكون الهدوء وسكون الحركة وفى هذه الحالة يصبح صوت مكاينه الرونيو وهى تدور مسموعا وملفتا للنظر وعكس ذلك فى ساعات النهار!..

لقد كان الاخ بخيت عبد الرحمن، هو الخبير المتخصص فى هذه المسائل.. ومهندس الاجهزة السرية ـ يعرف تماما اين تخبأ هذه الاجهزة.. وكيف تعمل، وطريقة عمل جهاز الاتصال، المرتبط بعمل هذه الاجهز كان الزميل بخيت كادرا شجاعا ومخلصا ونشطا، عنده لكل مشكلة حل، ساعده فى ذلك علاقاته الاجتماعية القوية بالمواطنين فى مدينة ود مدنى، فهو يحظى بحب واحترام اقسام كبيرة منهم، لاسيما بين الشباب لقد ساعده فى ذلك اهتمامه بالحركة الرياضية واندماجه فى الوسط الرياضى

اتحاد مزارعى الجزيرة والمناقل

عندما انتشرت وقويت قواعد الحزب فى انحاء الجزيرة كلها تقريبا، واتسعت بصورة شاملة الحركة الجماهيرية، الرافضة للاوضاع الاقتصادية للمزارعين، والمطالبة بقيام اتحاد لهم، يعمل على توحيدهم وتنظيمهم لتحسين احوالهم المعيشية، بدأنا التحضير لعقد المؤتمر التأسيسى لاتحاد المزارعين، فتكونت اللجنة التمهيدية التى حرصنا فى تكوينها على تمثيل كل مناطق الجزيرة، فتكونت من الاخوة والاعمام المناضلين فى ذلك الوقت الاتية اسماؤهم :ـ

١ / الامين محمد الامين رئيس
٢ / احمد على الحاج سكرتيرا
٣ / جابر عثمان نائبا للرئيس
٤ / يوسف احمد مصطفى نائبا للسكتير
٥ / عبد الرحمن الماص عضو
٦ / داؤد عبد الجليل عضو
٧ / عبد الله محمد الامين برقاوى عضو
٨ / عبد الرحيم أبو سنينه عضو
٩ / حامد محمد بلول عضو
١٠/ عبد الله دفع الله عضو
١١/ عبد القادر حموده عضو
١٢/ محمد محمدين عضو
١٣/ احمد الماص عضو
١٤/ الطيب محمد الامين عضو
١٥/ عبد القادر البدوى عضو
١٦/ بانقا حسن حباره عضو
١٧/ دفع الله محمد دفع الله عضو
١٨/ دفع الله حمد النيل العركى عضو
١٩/ عباس محمد دفع الله عضو
٢٠/ محمد عبد الباقى عضو
٢١/ حامد يوسف كسلا عضو
٢٢/ الطيب النيل عضو
٢٢/ الامين العوض عضو
٢٤/ طه عثمان جبور عضو
٢٥/ محمود عبد الباقى عضو



* واحد من المؤتمرات الصحفية التى عقدتها اللجنة التمهيدية لاتحاد المزارعين بهدف كسب التأييد للاعتراف بالاتحاد .

ومن هنا انتهت مرحلة التوعية والتعبئة والتنظيم، باكتمال قيام الاتحاد واجـزته، وبدأت مرحلة جديدة، هى مرحلة الصراع المرير من اجل انتزاع الاعتراف الرسمى بهذا الاتحاد، وتحقيق مطالب المزارعين، المتمثلة بصورة عامة، فى احداث تغييرات اساسية فى نظام الشراكة المضلل، والمجحف حقا بمصالح المزارعين..

ورفعت لجنة الاتحاد مذكرة ضافية لادارة المشروع ورئاسه مدينة النيل الازرق، مطالبـه بالاعتراف الفورى باتحاد المزارعين وحل هيئه المزارعين، والاستجـابـة لمطالب المـزارعين المتعلقة بتعديل نظام الشراكة بين الحكومة وادارة المشروع والمزارعين.

ولما كانت المماطلة فى الاستجابة للمطالب من قبل ادارة المشروع، وادارة المدينة، قرر اتحاد المزارعين تسيير موكب احتجاج لرئاسة المديرية، وادارة المشروع ببركات، تاكيدا لاصرار المزارعين على مطالبهم وتأييدا لاتحادهم الوليد..

وكان الموكب رهيبا بحق، اهتزت له عاصمة المديرية، ود مدنى وعاصمة المشروع، بركات.. لم يبق فى ذلك اليوم مزارع واحد قادر على الحركة فى منزله، كلهم اشتركوا فى ذلك الموكب، شيبهم وشبابهم، وسار هذا الجمع راجلين من ود مدنى لبلدة بركـات، التى تبعـد حوالى سبعة كيلومترات.. ومع كل هذا اصرت الادارتان الاستعماريتان فى كل من مدنى، وبركات على عدم الاعتراف بالاتحاد والتمسك بشرعية هيئة المزارعين على اعتبارها الممثل الشرعى الوحيد لمزارعى الجـزيـرة، وتـوالت العـرائض والمطالبات والبيانات، ووفود اتحاد المـزارعين للعاصمة، وعقد المؤتمرات الصحفية ـ كانت حملة تنوير مكثفة، الغرض منها جلب تأييد الرأى العام السودانى، لمطالب المزارعين فى الاعتراف باتحـادهم، ومساندة مطالبهم العادلة ـ وقد حققت هذه الحملة الاعلامية هدفها ـ فقد كسب اتحاد المزارعين تأييد العمال والطلبة والصحافة الوطنية.. وتواصلت الجهود من اجل كسب الاعتراف بالاتحاد، دون توقف، وواصلت الادارة الاستعمارية تعنتها اصرارا على عدم الاعتراف باتحاد المزاعرين، لقد كانت الادارة البـريـطانيـة تدرك ان الاعتـراف باتحـاد المزارعين سيعنى بالضرورة تشجيـع كل المـزارعـين فى السودان لاسيما فى مشاريع القطن، حكومية وخاصة، على المطالبة بتكوين اتحادات لهم، الامر الذى يهدد، دون شك مصالح الاستعمار ومعاونيه، بصورة مباشرة، او غير مباشرة خاصة وان العمل لقيام هذه الاتحادات تقوده عناصر شيوعية.

وفى وجـه على التعنت، ومواصلة للعمل الشعبى من اجل تحقيق مطالب المزارعين واصرارا على تلك المطالب جاء قرار الاتحاد التاريخى بتسيير موكب

جماهيرى من المزارعين، لسراى الحاكم العام بالخرطوم لتسليمه عريضة المطالبة بالاعتراف بالاتحاد وتحقيق مطالب المزارعين نص العريضة.

يا صاحب المعالى:

نحن ـ مزارعى الجزيرة ـ الذين على اكتافنا قام اضخم مورد اقتصادى بالسودان، تحملنا من اجله الالآم والدموع، فى صمت وصبر، السنين الطويلة الشاقة، تحملنا فتك البلهارسيا والملاريا وسكتنا على سياسة التجهيل لأبنائنا، والافقار المريع لعائلاتنا، وتحولنا الى عبيد للارض.

من عرقنا ودمائنا وكدنا، امتلات جيوب الشركة الزراعية البريطانية فى الماضى، ثم جاء التأميم المزعوم لنجد انفسنا مرة اخرى، نعيش فى نفس الظروف وتنهب اموالنا وارزاقنا، ويباع انتاجنا بابخس الاثمان الى الشركات البريطانية، ورغم هذا ما زالت سياسة الاضطهاد والافقار والتجهيل والتجويع قائمة.

نحن ـ مزارعى الجزيرة ـ قد قررنا بعزم ورجوله ان نبدل احوالنا وان ننبذ الى غير رجعه، سياسة السكوت عن الظلم، وحتى يحدث تغيير اساسى فى حياتنا.

ان العالم قد تبدل ولم تعد السياسة العتيقة ذات كيان فى عالم اليوم.. فبالإمس القريب، عبر الشعب السوانى، بجميع قطاعاته واحزابه وهيئاته، رفض السياسة البريطانية، القائمة على القهر والبطش.. وفى حزم اصر ويصر الشعب على اقتلاع جذور هذه السياسة البريطانية فى الثلاث سنوات المقبلة.. وبهذا قرر شعبنا، رفضه لمنهج السياسة البريطاينية فى السودان.

واليوم يقرر مزارعو الجزيرة، وبغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية والطائفية والاجتماعية، انهم يرفضون رفضا باتا السياسة الاقتصادية البريطانية، القائمة على اساس نهب انتاج الجزيرة وسلبه لصالح الشركات البريطانية.. ونحن نصر ونكافح لتحقيق اصرارنا على ارجاع جميع حقوقنا وان ننال ثمرة جهودنا كاملة، لرفع مستوانا المعيشى وتعليم ابنائنا، ووقاية عائلاتنا من الامراض الفتاكة، والافلاس المريع ولن نتراجع عن هذا الموقف.

ياصاحب المعالى:

من اجل تحقيق مصالحنا ومطالبنا الديمقراطية الحقة، لجأنا الى الاسلوب الوحيد الذى نمتلكه، اسلوب توحيد صفوفنا، ومطالبه الحكومة بالاستماع لرأينا، والاستجابه لحقوقنا.. وفعلا اكتسبنا اول خطوة، باعتراف حكومتكم بحقنا فى التنظيم، ولكن السياسة البريطانية والتى تقوم على اساس حماية



* موكب مزارعى الجزيرة بميدان عبدالمنعم (نادى الاسره) مطالبين بالاعتراف باتحادهم .

مصالحها لامصالح الاغلبية، هذه السياسة شاءت ان تفرض علينا، دستورا يزيف من ارادتنا، وينصب فى هيئتنا، الشخصيات التى تريدها حكومتكم، لا الشخصيات التى تعبر عن امانينا ورغبتنا.. وعلى هذا ظل رأينا نحن جمهور المزارعين - بعيدا عن اسماع المسئولين وظا ـ مطالبنا عرضة للاهمال والانحراف.

ياصاحب المعالى:

ان كل مانهدف اليه هو التعبير عن ارادتنا، ومصالحنا بواسطة هيئة ديمقراطية نظيفة، وقد اولينا الاتحاد القائم الان ثقتنا، وبنيناه على اكتافنا بالطريقة الديمقراطية الحرة.. وليس هذا الاسلوب بدعة، ولكنه الاسلوب الاجتماعى المتبع في كافة الاقطار. اننا حينما نطالب بالاعتراف باتحادنا، فانما نطالب بحقنا على المسئولين، ليستمعوا لرأينا ومطالبنا بصفتنا عصب اكبر مشروع اقتصادى فى السودان.. والاتحاد يمثل هذه الاراء والمطالبه، ونحن حينما نطلب بالاعتراف باتحادنا فانما نستند على حقوقنا المكفوله فى دستوركم، حسب نص المادة (٧) - ٢، والتى تقر انه لجميع الاشخاص الحق فى التعبير عن ارائهم والحق فى تأليف الجمعيات والاتحادات فى حدود القانون.

ياصاحب المعالي:

ان تعنت المسئولية ازاء اتحادنا هو فى الواقع، تحدى لمطالبنا ورغباتنا، ومحاوله سوداء لتحطيم اكبر مشروع اقتصادى فى السودان هو فى الواقع خرق لمبادىء دستور الحكم الذاتى، وعدم الاعتراف بها... ومهما يكن الامر فقد قررنا نحن جميع مزارعى الجزيرة - ان يقبل الاتحاد - الهيئة الوحيدة التى تتكلم باسمنا وتتعامل لحسابنا.. وكل خطوة يخطوها الاتحاد، ستجد منا التأييد التام والدفاع الجاد.. وعندما تقرر هذه الحقائق، فنحن اعلم بالطريق الذى نسلكه.

ياصاحب المعالى:

ليس لنا مانقول سوى مطالبتنا لكم بالاعتراف بحقوق المزارعين الديمقراطية، واختيارهم لممثليهم بمحض ارادتهم دون اى ضغط او ارهاب.

اعترفوا بحقوق المزارعين الديمقراطية واتحادهم، وطبقوا احكام الدستور، هذا ما نطلبه

وتقبلوا احترامنا

وعندما نشر وقتذاك هذا القرار، بأن مزارعى الجزيرة سيسيرون فى موكب لسراى الحاكم العام. اعلن السير جيمس روبرتسون، السكرتير الادارى لحكومة السودان، فى بيان رسمى من اذاعة ام درمان، ان المزارعين لو حضروا

للخرطوم، فان موكبهم سيعض بالقوة اللازمة.. وظلت الاذاعة تردد هذا البيان التحذيرى - ولكن هذا التهديد جاء بنتيجة عكسية.. فقد حرك فى المزاعين - وهم اهل الريف دافع الشجاعة والرجولة والتحدى، فجعل الجميع بدون استثناء يقررون الاشتراك فى الموكب - شيبا وشبابا وحتى النساء.. كان الآباء والامهات يقولون لابنائهم - اذا ذهبتم انتم وقتلتكم الحكومة، فما فائدة وجودنا من بعدكم؟! فمن الخير ان نموت جميعا!.. وفى صباح ذلك اليوم التاريخى المهيب (٢٩ ديسمبر من عام ١٩٥٣م) بدأت جموع المزارعين، وبكل انواع المواصلات المتوفرة، تتدفق نحو ميدان عبد المنعم بالخرطوم (ميدان الاسرة) وهو المكان الذى اتفق على ان يبدأ فيه التجمع، ثم يسير الموكب لسراى الحاكم العام - ومن داخل عربة، مركب عليها مكبر للصوت، كنت اقرأ على الجموع صيغة المذكرة المقدمة للحاكم العام - واضطررت برغم مكبر الصوت، ان اقرأ هذه المذكرة عددا من المرات من مواقع مختلفة لاستطيع اسماع كل المزارعين، وذلك لضخامة ذلك الموكب.. كان التقدير الرسمى لحجم الموكب هو خمسة وعشرين الف مزارع بينما كنا نقدره بثلاثين الفا.

وامام هذا الوضع، تراجعت السلطة الاستعمارية عن تهديدها وطلبت التفاوض مع قادة المزارعين وحدهم.. وفى هذا الاثناء جاءنى من يبلغنى ان الاخ المرحوم عبد الخالق محجوب يريد مقابلتى بمنزله بام درمان.. ولما قابلته سألنى على الفور - ماذا ستفعلون؟! فأجبته بسرعة: سيسير المزارعون فى موكبهم المعلن لسراى الحاكم العام لتقديم المذكرة له.

فى هذه الوقت كانت الانتخابات البرلمانية التى نصت عليها اتفاقية ١٩٥٢، بشأن السودان بين دولتى الحكم الثنائى قد انتهت، واتضح ان الحزب الوطنى الاتحادى نال الاغلبية فى تلك الانتخابات.. وقد نصت تلك الاتفاقية فى احد بنودها، ان للحكم العام الحق فى اعلان الانهيار الدستورى، اذا مارأى اسبابا وجيهة لذلك - فقال لى الاخ عبد الخالق: اذا سار الموكب وحصل صدام مع قوة البوليس، فان هذا سيعطى الحاكم العام الحق فى اعلان الانهيار الدستورى، وعليه انى ارى الا يسير الموكب وان تحاولوا بالتفاهم التوصل لحل مع السلطات.

وبعد رجوعى من ام درمان لميدان عبد المنعم، كانت المفاوضات بين لجنة المزارعين والسكرتير الادارى قد بدأت بالفعل.. فقد سعت الادارة البريطانية من جانبها لهذه المفاوضات، بل وان السكرتير الادارى بنفسه، قد وعد بالاعتراف بالاتحاد، بشرط الا يسير الموكب.. وبالطبع لم يكن الموكب هدفا فى حد ذاته، ولكنه كان وسيله للضغط لانتزاع الاعتراف باتحاد المزارعين. وتم



* بعض قيادات اللجنة المركزية لاتحاد المزارعين .

الاعتـراف بالاتحـاد، على ان تجرى انتخابات جديدة، تحت اشراف لجنة محـايـده.. ووافقت لجنـة الاتحاد على هذا الشرط، ثقة فى ان الانتخابات الجـديدة لن تغير شيئا فى الوضع ـ فالمزارعون متمسكون بقوة باتحادهم، وقيادتهم الجديدة التى انتخبوها فى مؤتمرهم التأسيسى.

فى هذا الوقت تم تشكيل الحكومة الوطنية الاولى برئاسة المرحوم الزعيم ازهرى، وتولى فيها المرحوم يحي الفضيلى وزارة الاعلام.. فشن حملة اذاعية عاتيه على الشيـوعين، وقيادة المزارعين الشيوعيه، وعندما اختارتنى لجنة الاتحاد، ضابطا له، طالب بابعادى.. ولكن ذلك لم يحدث، ولم تؤثر الحملة الاعلامية على وحدة المزارعين وتماسكهم، بغض النظر عن ولاءاتهم الطائفيه، او انتماءاتهم الحزبية.. فقد استمسكت قيادة الاتحاد، بشعاره الاساسى ـ هو ان عمل اتحاد المزارعين ينحصر بين "التقنت" و "ابو عشرين" ولا دخل له بغير ذلك.. اى ان نضال الاتحاد منصب وحسب فى رعاية مصالح المزارعين والدفاع عن حقوقهم.. وقد ساعد طرح هذا الشعار كثيرا فى ابعاد اى تأثير لاتهـام حركـة المزارعينواتحادهمبالانحياز السياسى، كما كانت تروج لذلك الحكومة وادارة المشروع.. وكان هذا عاملا هاما فى تماسك جماهير المزارعين ووحدتهم، رغم انتماءاتهم الحزبية والطائفيه المتباينه.

سبق لى ان ذكـرت ان الاعتـراف باتحاد المزارعين جاءمشروطا باجراء انتخـابـات جديده باشراف لجنة محايدة.. وكان هدف هذا الشرط فى واقع الامـر، هو محاولة لاستبدال قيادة حركة المزارعين، بقيادة حزبية اخرى، تتعاون مع الحكومة وادارة المشروع، على حساب مطالب المزارعين كما كانت تفعل قيادة هيئة المزارعين التى تقرر حلها.. فشكلت الحكومة الوطنية الاولى برئاسة المرحوم الزعيم الازهرى، لجنة سميت محايدة ـ لاجراء الانتخابات، برئـاسة المرحوم الاستاذ محمد احمد عبد القادر، وكان واحدا من قيادات الحزب الوطنى الاتحادى البارزين، وعضوية عدد محدود من كبار الموظفين بينهم مولانـا الشيخ حسن البدانى القاضى الشرعى الذى كانت تربطه بنا صلات قويه..

وقد لعب من داخل اللجنة دورا عظيما، من منطلق حرصه على مبدأ حيده اللجنة المشرفه على اجراء الانتخابات وجاءت نتيجة الانتخابات فوزا ساحقا لكـل مرشحـى الاتحـاد فى مؤتمـرات ولجان التفاتيش والاقسام والمندوبين للمؤتمر العام..

وانعقـد المؤتمر التاريخى العام، لاتحاد مزارعى الجزيرة والمناقل بقاعة الاجتماعات بدار المزارعين الفخمة المطله على شاطىء النيل الازرق بود مدنى

في سبتمبر سنه ١٩٥٤ وكان قد اكتمل بناء هذه الدار حديثا بواسطة هيئة المزارعين، التى لم تمهلها حركة المزارعين بافتتاحها فافتتحها اتحادهم، بانعقاد اول مؤتمراته فيها..

اختارتنى قيادة اتحاد المزارعين، ضابطا للاتحاد. ولم يكن هذا الاختيار غريبا.. ذلك اننى كنت مع هذه القيادة فى قلب الحركة الجماهيرية للمزارعين والتى اثمرت انتزاع الاعتراف باتحادهم.. كما ان هذا التقليد وضعته ادارة المشروع لهيئه المزارعين، التى كان لها مستشار من كبار موظفى المشروع، وضباط ايضا.. وكان الغرض من هذا واضحا، وهو ان يكون وجودهما ضمانا لسير الهيئة فى الاتجاه الذى تريده الادارة.. ولكنى اذكر الان ان المرحوم عبد الخالق محجوب، سكرتير الحزب الشيوعى السوادنى كان قد اعترض على تعيينى ضابطا لاتحاد المزارعين، بحجة اننى كادر سرى، ولا يجب ان اشغل وظيفة علنيه! ولم اكن فى الواقع كادرا سريا، فقد كنت وكما اسلفت ـ فى قلب الحركة الجماهيرية للمزارعين. وعندما عرضت الامر على قيادة الاتحاد، رفضوا اجماعا هذا الرأى وفرضوا وجودى ضابطا للاتحاد..

هكذا اصبح اتحاد مزارعي الجزيرة والمناقل، بعد انتهاء اعمال مؤتمرة التاريخى العظيم شرعيا وانتهت الى غير رجعه هيئة المزارعين.. واجتمعنا، السيد/ يعقوب الصائغ ـ مستشار هيئة المزارعين ـ وشخصى عددا من الاجتماعات، فى عملية التسليم والتسلم.. وكانت تربطنى به صله القربى.. ولكن هذا ما كان يمكن ان يؤثر فى الصراع المرير الذى خضناه على طرفى نقيض.. لقد كان السيد/ يعقوب رجلا فاضلا كريم الخلق.. واذكر انه فى اجتماعنا الاول سألنى ـ متعجبا ـ كيف كنا نعقد، فى حملات التوعية والتعبئة، خمسة اجتماعات جماهيرية فى خمسة تفاتيش مختلفة فى اليوم الواحد!.. لقد كان يرى فى ذلك معجزة! وله فى ذلك عذره ـ فهو لم يكن رجل عمل شعبى ولكن كان واحدا من كبار موظفى مشروع الجزيرة، فى منصب مستشار هيئة المزارعين!

واستلمنا ـ بالكامل ـ ممتلكات الهيئة.. وعلى رأس هذه الممتلكات، واكثرها قيمة، الدار الفخمة، وعربتى صالون فورد. لقد هيأت الدار للاتحاد انتظام العمل، المكتبى والعمل الشعبى، ووفرت العربتان وسيلة للحركة فى مساحة الجزيرة الشاسعة.. فانتظمت صلتنا بقواعد المزارعين، فى قرى الجزيرة المختلفة.. هذه الصلة التى استمر اهتمامنا بها، ولم يشغلنا عنها العمل المكتبى بالدار.. واصبح الاتحاد ـ بعد المعارك العنيفة التى خاضها ـ حقيقه واقعه، وصرحا شامخا فى بنيان الحركة الفئوية فى بلادنا.. بل واصبح هذا الاتحاد قبله لمزارعى السودان، يؤمونه طالبين الاستفادة من التجربه،

والمساعدة فى تنظيم انفسهم، فى مشاريعهم فى النيلين الازرق والابيض وفى جبال النوبه.

اتحادات المزارعين فى المشاريع الخاصة

لم يقتصر اهتمامنا منذ البداية، على مزارعى الجزيرة وحدهم ولكنا كنا معنيين ايضا بالمزارعين، فى المشاريع الخاصة فى النيلين الازرق والابيض.. ولكن صحيح ان العمل فى الجزيرة استوعب جل طاقتنا، ومعظم اهتمامنا، خاصة فى المرحة الاولى، وحتى قيام الاتحاد والاعتراف به.. ذلك ان المزارعين فى المشاريع الزارعية الخاصة، كان حالهم اكثر بؤسا من مزارعى الجزيرة فهم ـ بجانب تطبيق نظام الشراكة الظالم، كانوا يتعرضون لفساد ادارات المشاريع، غير الخاضعة لاى نوع من انواع الرقابة.. فهم ـ مستغلين فى ذلك بساطة المزارعين وجهلهم ـ يفعلون مايريدون... اضافة لحقيقة ان مناطق هذه المشاريع تفتقر بصورة تكاد تكون كاملة، لابسط انواع الخدمات الاجتماعية.. فهم يزرعون الذهب الابيض، ولكنهم يجنون الجوع والمرض والجهل! كانت هذه المشاريع الخاصة الكبيرة تمتلكها دائرتا المهدى والميرغنى وبعض كبار اصحاب الشركات التجارية مثل شركات ابو العلا وعبد المنعم محمد.

وبدأنا العمل فى هذه المناطق، بتأسيس قواعد للحزب، في سنار، وسنجة، و كوستى، والدويم. والاتصال المباشر بالمزارعين، وتبصيرهم بالظلم الواقع عليهم الذى كانوا يحسونه فى معيشتهم، ولكنهم لا يملكون الوعى، الذى ينير لهم طريق السعى للتخلص منه.. وهنا كان طرحنا شعار قيام اتحادات المزارعين.. وسرعان ما التف المزارعون حول هذا الشعار، ولم تجد مقاومة اصحاب المشاريع واداراتهم، ولا الاستعانة بالادارة الاهلية والحكومية وسيطرتها، ولا التضليل الطائفى والقبلى.. وبرز وسط مزارعى هذه المشاريع، قادة طبيعيون مقتدرون ومخلصون، من امثال شيخ الخير محمد الخير، فى مشروع كساب، وشيخ العبيد فى مشروع ام هانى وكنتيجة لجهود مكثفة لقواعد الحزب، تحت قيادة الكادر المحترف قامت اتحادات مشاريع ام هانى، وجوده، وقلى، والغشاشوية، وام جر، وعدد أخر من الاتحدات فى المشاريع الصغيرة بالنيل الابيض ـ كما سبقت الاشارة، فان تكوين اتحاد عام المزارعين بالجزيرة قد ساعد كثيرا فى قيام هذه الاتحادات وأصبح نموذجا وقدوة لاسيما وان علاقات الانتاج فى مشاريع القطن الخصوصية، كانت قائمة تقريبا على نفس اساس الشراكة التى بنيت عليها هذه العلاقات، فى مشروع الجزيرة.. ولكن مزارعى الشاريع الخاصة فقدوا بعض الميزات التى

جريمة مشروع جوده

المزارعون فى مشاريع القطن الخصوصية، في النيلين الابيض والازرق، كانـواحـديثى عهد بتجربة التنظيم الفئوى.. ولهذا فان معرفتهم بأسلوب الممارسات النقابية كانت معرفة محدودة، بل انهم كانوا حديثى عهد حتى بزارعة القطن ونظم المشاريع الزراعية الحديثه.. لقد اعتاد المواطنون فى هذه المناطق، ان يجنوا ثمار كدهم وعرقهم كله، دون شريك.. ومهما كان حجم تلك الثمـار، فهم بذلك قانعون راضون. كانوا يزرعون بالامطار مايكفى مؤونه عامهم، ويجدون فيما تنبته الارض بمياه الامطار، مايكفى لرعى حيواناتهم.. وهـم فى كل ذلك احرار، لايتقيدون الا بما تمليه عليهم ارادتهم، المستمدة من خبرة وتجارب السنين.. لا يلزمهم بأوقات ونوع العمل الزراعى قانون، ولا يخضعـون لمحـاسبـة سلطة، ولا توقع عليهم عقوبات متسلط.. وبتشجيع ومؤازرة السلطة الاستعمارية، تأسست مشاريع القطن الخاصة، وانتشرت على ضفـاف النيلين الازرق والابيض بسرعـة فائقـة، لتزود هى ورصيفها مشروع الجـزرة العملاق والمشاريع الاخرى، مصانع لانكشير البريطانية، بالقطن السودانى الممتاز، وبالاسعار التى يفرضونها دون رقيب ولا حسيب.. واصحاب هذه المشاريع يحققون برغم ذلك، الارباح المجزية، بتطبيق قانون الشراكـة المجحف بحقـوق المـزارعـين فى هذه المشـاريع جميعها.. ويخلق الاستعمار بذلك طبقة من انصاره والموالين له ويكافىء من وقفوا بجانبه من الانصار..

وكان طبيعيا ـ نتيجة لهذه الظروف مجتمعة ـ ان يتعرض المزارعون فى هذه المنـاطق، لحياة المشقة الحقيقية، والظلم المبين. وبدل ان تتحسن حياتهم، نتيجـة هذا التطور والتحديث فى اساليب ووسائل العمل الزراعى، ونوعية المحاصيل حدث العكس تماما فازدادت أحوالهم سوءا، واضمحلت ثروتهم الحيوانية، وقل تبعا لذلك ما كانت تدره عليهم من فوائد.. وهذا الواقع هو التعبير الحقيقى، لسرعة استجابه المزارعين لنداء وحدتهم وتكوين اتحاداتهم، بهدف رفع هذه المظالم عن كاهلهم، وتحسين اوضاعهم المعيشية وكان هذا هو حال مزارعى مشروع جودة.

كما سبقت الاشارة فانه بعد تكوين اتحاد عام مزارعى الجزيرة والمناقل، اصبح هذا الاتحاد، قبلة للمزارعين.. يؤمونه بهدف الاستفادة من تجربته، وطلب عونـه فى تكـوين اتحاداتهم.. كان هذا هو الاحال بالنسبة لمشروعى ام هانى وجوده وغيرهما ـ وبحكم موقعى الرسمى كضابط لاتحاد مزارعى

استفاد منها مزارعو الجزيرة ـ مثل تخصيص مال للخدمات الاجتماعية ومال للاحتياطى ـ برغم ان هذا المال اصلا هو مال المزارعين.. اضف لهذا تخصيص مساحات للمزارعين لزراعة الذرة يؤول محصولها للمزارع..
وكذلك فان طبيعة مشروع الجزيرة الحكومية ضمنت حدا من الرقابة على اداء الادارات فى الحسابات والمعاملات عامة ـ الامر الذى جعل الطلب الاساسى لاتحادات مزارعى المشاريع الخصوصية، فى النيل الازرق والابيض، هو مساواتهم بمزارعى مشروع الجزيرة فى البداية.. ان العمل مع المزارعين فى المشاريع الخاصة، فى النيلين الابيض والازرق، بغرض استنهاضهم لتنظيم انفسهم، وتحقيق مطالبهم، لم يكن يخلو من المخاطرة ـ ذلك ان اصحاب هذه المشاريع هم من ذوى النفوذ القوى، لدى الادارتين، الاهلية والحكومية، بحكم وضعهم الاقتصادى المتاز، او نفوذهم الطائفى والقبلى.. فقد كانت تلك المشاريع تدر عائدا كبيرا، وبخاصة فى البداية، عندما كان انتاج الارض البكر وفيرا، والاسعار العالمية للقطن مرتفعة وعلاقة الشراكة الاسمية ـ القائمة بين المزارعين وصاحب المشروع، هى فى الواقع علاقة لمصلحة طرف واحد، هو صاحب المشروع ـ ويتمثل ذلك فى نسبة ال ٦٠٪ لصاحب المشروع، وفى الالتزامات العديدة التى تخصم من نصيب المزارع الـ ٤٠٪ فى العملية الزراعية، اضافة الى التزاماته الخاصة فى الحساب المشترك.. الامر الذى يجعل نسبة الـ ٤٠٪ للمزارع، فى الواقع امرا مضللا..

وبهذه المناسبة اذكر اننا ذهبنا لقرية الفشاشويه بالنيل الابيض لنعقد اجتماعا للمزارعين بالمشروع فما كان من عمدة البلده الا ان حرض المزارعين ضدنا، على اعتبارنا شيوعيين كفار.. فجاء المزارعون للاجتماع بروح عدائى، ولكنهم عندما استمعوا لحديثنا تغير الحال وانقلبوا لنا مؤيدين.. فقد كان حديثنا كله منصبا على المظالم الواقعه على المزارع فى المشروع، وعلى ضرورة وحدة المزارعين وتكاتفهم لازاله الظلم عن كاهلهم.. واصبحنا بعد الاجتماع محل حفاوة الجميع، وأسقط فى يد العمدة الذى اراد بنا شرا مستطيرا واراد لنا موقفنا الذى اتخذنا فيه جانب مصالح المزارعين السلامة!



* تجمع هذه الصورة بين بعض قيادات اتحاد مزارعى جبال النوبه واتحاد مزارعى الجزيره .

الجزيرة، كنت اتولى، مع مندوبى هذه المشاريع وبمعاونتهم صياغة مطالبهم وتبصيرهم بكيفية تكوين اتحادهم، الى غير هذا من الافكار الهادفة الى بعث حركة مطلبية فلاحية متسعة تناضل من اجل تحسين احوال المزارعين، وتكون رصيدا مؤثرا فى حركة نضال شعب السودان، من اجل تحريره الكامل، وديمقراطيته الحقيقيه وكنت احرص على زيارة هذه المشاريع، والاجتماع بقياداتها، والتعرف عن قرب على مشاكلها..

وهنا تحضرنى واقعه ذات مغزى كبير فى تقديرى ذلك ان وفد مزارعى مشروع ام هانى، الواقع فى المنطقة الى الجنوب من مدينه كوستى، على الضفة الشرقية للنيل الابيض، عندما جاء لدار اتحاد الجزيرة، طالبا العون لتكوين اتحادهم، وقابلتهم، وعلى مدى يومين مكثوها فى ود مدنى، ناقشت معهم مطالبهم، وشرحت لهم طريقة تكوين اتحادهم ومسوده دستوره، وكان ذلك فى العام ١٩٥٥م، ذكرت لهم اننى، وزميل لى كنا نملك فى موقع مشروعهم الحالى، ساقية ايام كنا نقوم بنشاط وطنى سرى وكان ذلك فى العام ١٩٤٣م. فتملكهم العجب ـ ذاكرين لى انهم من اول وهله رأونى فيها، خامرهم الشك في ان اكون انا هو ذلك الشاب الذى عرفوه وتحدث معهم احاديث وطنية عن حرية السوادن واستقلاله فى ذلك المكان!! وكانوا هم وقتها رعاة.. كان ذلك قبل احد عشر عاما او تزيد وقد اصبح رعاة الامس قادة لحركة مزارعى مشروع ام هانى اليوم! لقد جعلتنى هذه الحادثة اؤمن، منذ ذلك العهد وحتى الآن، ان الجهد المخلص فى ميدان العمل العام، لا يذهب هدرا، ولا بد ان يؤتى اكله مهما طال الزمن.. وعليه فان استعجال نتائج الجهد فى مجالات العمل العام، امر ينقص اصحابه التفكير السوى والخبرة العملية..

اما مزارعو جوده، فقد تكررت زياراتى لهم برغم المشقة التى كنت اقاسيها فى كل زيارة ـ فقد كنت استعمل اللوارى التجارية، من بلده "ربك للجبلين فجوده جنوبا.. وكانت مسافة طويلة حوالى مائة وخمسون ميلا ـ ولاانسى انه فى واحدة من هذه الزيارات، وكان الفصل خريفا ان غاص اللورى فى احد الخيران، وكان لابد من قضاء ليلتنا المؤلمة تلك، فى ذلك المكان.. فأوسعنا البعوض عضا، وكان بعوضا كبير الحجم، قرصته كوخز الابر، لدرجة ان الرعاة فى هذه المناطق، وعندما تميل الشمس نحو المغيب، يسوقون ابقارهم بعيدا عن شاطىء النيل ويجمعونها في زرائب ويوقدون النار ليحمى دخانها الكثيف، حيواناتهم من عض البعوض.. وهكذا فعلنا نحن فى تلك الليله الكئيبة اوقدنا النار وتجمعنا حيث يهب الدخان ناحيتنا ليبتعد البعوض اللعين عنا. ولا انسى ابدا كم ازددت بغضا للاستعمار في تلك الليلة الليلاء ـ ذلك ان

الانجلين، ايام الحرب العالمية الثانية كانوا قد مدوا خط السكة الحديد، من بلده ربك لبلده الجبلين، تحسبا لاحتمال تقهقرهم جنوبا.. ولكن الادارة الاستعمارية وبمجرد ا نتهاء الحرب، ازالت هذا الخط الحديدى، لكى لايكون وسيلة لصلة الشمال بالجنوب، تنفيذا لسياسة المناطق المقفوله التى اتبعوها آنذاك.

وخلال تلك الزيارات المتكررة لمشروع جوده، استطعت ان اشرح لهم اهمية توحيد صفوفهم، للعمل من اجل تحقيق مطالبهم، وذلك من خلال الاجتماعات، التى كنت اعقدها مع بعض العناصر المتقدمة منهم. فما كان يمكن فى تلك الظروف عقد لقاءات جماهيرية وفى الحقيقة فان العمل الشعبى، فى تلك المناطق النائية، التى تفرض فيها الطائفيه والادارة الاهليه، وادارات المشاريع ،سطوتها وجبروتها، بعيدا عن اى رقابه، كان لابد فيه من الحيطة والحذر.. وقد تجاوب المزارعون تجاوبا حماسيا عظيما لما كنا نبشر به، واستطاعوا بسرعة استيعاب ابعاد قضيتهم ذلك انهم كانوا يكتوون حقيقة بنيران المظالم التى يعيشونها.

ان الاراضى التى قامت عليها هذه المشاريع الزراعية الحديثه، على ضفتى النيلين الابيض والازرق كانت فى الاصل مراعى، يعتبرها المواطنون فى كل منطقة ملكا لهم بقانون وضع اليد، لانهم ظلوا وآباؤهم الاولون، يعتمدون عليها لرعى حيواناتهم، وزراعة مساحات صغيرة يكفى محصولها قوت عامهم..

لقد تطلب قيام هذه المشاريع مجهودات كبيرة توعية لهؤلاء الرعاة بفوائد هذه المشاريع الزراعية لهم لتحسين احوالهم كما كان الوعد بتسليم الحواشات للزراعة فى اراضيهم هذه ليجنوا ثمار مايزرعون فترتفع دخولهم ـ لهذا فقد بدأ هؤلاء المواطنون حياتهم الجديدة بآمال عراض، فى التغيير الى الاحسن الذى سيطرأ على معيشتهم.. كما ان شعورهم بان هذه المشاريع انما تقام على اراضى هم اصحابها وملاكها الحقيقيون جعلهم يحسون بانهم شركاء حقيقيون فى هذا المشاريع التى اعتبروا اصحابها مجرد ممولين.

اسست شركات عبد المنعم محمد مشروع جوده فى اطار تسابق محموم على تأسيس هذه المشاريع من قبل الشركات والافراد ـ فكانت مشاريع شركة ابو العلا ودائرتى المهدى والميرغنى وغيرها.. وقد وجد هذا الاتجاه لقيام مشاريع حديثه لزراعة القطن تشجيع السلطة الاستعمارية الحاكمة فهى بذلك تحقق غرضين: الاول هو تحقيق انتاج وفير من القطن السوانى طويل التيلة وبالاسعار المناسبة لمصانع لانكشير البريطانية ـ الثانى هو خلق طبقة من اغنياء الريف ترتبط مصالحهم بمصلحة الاستعمار.

كان يدير مشروع جوده السيد/ عبد الوهاب عبد المجيد عبد المنعم وقد ظل المـزارعـون فى المشروع يلاحقـونه بمطالبهم لتحسين احوالهم بعد ان اصيبوا بخيبه الامل فيما بذل لهم بسخاء من وعود

جعلتهم يقبلون قيـام هذه المشـاريـع، وبعد انتشار حركة الوعى النقابى وسطهم ـ فبفقدان اراضيهم تدهورت ثروتهم الحيوانية التى كانت تعتمد على ما تنبته تلك الاراضى من حشائش غنية، ولم يكن دخلهم من زراعة القطن كاف نتيجة لعلاقات الانتاج غير العادله ـ فنسبة الى ٦٠٪ لصاحب المشروع، وال ٤٠٪ للمـزارع كانت نسبة مضلله لان التزامات ماليه كبيره من تكلفة الانتاج تخصم من حساب المزارع، إضافة الى الالتزامات المشتركة لتكلفة الانتـاج مع صاحب المشروع.. يعكس هذا الواقع بوضوح تام حالة الفقر والبؤس، التى عاناها المزارعون واسرهم فى هذه المشاريع بالاضافة الى الحالة الصحيـة التى ازدادت سوء نتيجـة للامـراض التى لازمت انشـاء هذه المشـاريـع.. وفى المقابل نجد الثروات الطائلة التى استطاع اصحاب هذه المشاريع جمعها فى فترة زمنية قياسية..

هذا الوضـع جعـل المـزارعـين فى مشروع جوده، يجـأرون بالشكوى، ويطالبون بتحسين احوالهم، بتحقيق شراكة فعليه مع اصحاب المشروع ـ وذلك بان يكـون صافى الارباح مناصفة بين الشريكين، بعد خصم تكاليف الانتاج مناصفة كذلك..

ولكن ادارة المشروع ظلت ترفض بعنـاد هذا الطلب الأمـر الذى جعل المـزارعـين يقررون عدم تسليم اقطانهم واحتلال مكاتب ادارة المشروع.. فاستعـانت الادارة بالسلطة الاهلية المحلية وبنقطة بوليس صغيرة فى بلده الجبلين القـريبة دون جدوى.. الامر الذى تطلب الاتصال بمركز كوستى، فاصـدر السيـد/ عبـاس بابكر مفتش المركز آنذاك اوامره بتحرك قوة من الشرطة بقيادة ضابط الصف على الفضلى.. وكان واضحا مما اتخذ من تدابير ان السلطات لم تستـطع فهم النـزاع فى حجمـة الطبيعى الحقيقى وانهـا استهانت بخطورة الموقف ـ وربما كان المبرر ان هذا النزاع الزراعى وبهذا الحجم يحـدث لاول مرة فى المنطقـة التى عرف اهلها ببساطة وطيبه اهل الريف.. ولم يستطع المسئولون ادراك حركة التغيير الكبيرة، التى حدثت فى المنطقة بعد دخول هذه المشاريع الزراعية الاستثمارية..

وحدثت المواجهة بين المزارعين وقوة البوليس وقد لعب الضابط على الفضل دورا رئيسيا فى تأزم الموقف بعدم مرونته.. فدارت معركة استعمل فيها البوليس السلاح النارى، وصمد المزارعون، وسقط منهم قتلى وجرحى عديدون فى معركة غير متكافئة ـ ثم اعتقلت الشرطة اعدادا كبيرة من المزارعين وتم احتجازهم فى مبانى متفرقة لادارة المشروع كان ذلك فى فبراير عام ١٩٥٦م

كان القاضى المقيم بمركز كوستى هندى الجنسيه غير ملم باللغه العربية ولا بطبائع وعادات أهل المنطقه الامر الذى تطلب الاستعانه بقاضى من مدنى عاصمة المديرية.. وكان السيد/ عبد الرحمن النور هو قاضى المديرية وقتذاك.. فأصدر اوامره للقاضى السيد/ عبد الغزيز شدو للتحرك لموقع المشكلة للمساعدة فى علاج الامر باتخاذ الاجراءات القانونية المناسبة.. وقد رافق القاضى السيدان، اسماعيل عطية مدير البوليس وعوض حامد جبر الدار نائبه.. وفى موقع الحادث كان هناك اكثر من خمسمائة من المزارعين رهن الاعتقال ـ ولم يكن الجو فى تلك الظروف مناسبا لاجراء التحقيق او اتخاذ اى خطوات مناسبة فتقرر نقل المزارعين فى شاحنات كبيرة (قندرانات) لمركز كوستى ـ وهناك تم حجزهم جميعا فى عنبر صغير المساحة بالمقارنه مع اعداد المزارعين التى احتجزت فيه تحت اشراف الضابطين على الفضل وغندور.. لقد منع حتى الماء والهواء من المزارعين وهم المنهوكون المتعبون، فقضى مائة ثمانية وستون من المزارعين نحبهم اختناقا، فى هذا العنبر الذى اشتهر فيما بعد "بعنبر جوده" ولم ينج منهم الا القليل ـ وهؤلاء كان من حسن حظهم انهم وجدوا انفسهم ملاصقين لباب العنبر، فكان بعض الهواء يتسرب لانوفهم من "شقوق" هذا الباب ـ وكان من بين الناجين الشيخ عبد الله، الذى قابلته فيما بعد عندما جاء لزيارتى فى ود مدنى طالبا معونتى فى ايجاد محامى ليرفع قضيته على الحكومة نيابة عن أسر المزارعين المتضررين واذكر اننى اتصلت بالاخ احمد سليمان المحامى لهذا الغرض.. حكى لى الشيخ عبد الله تجربته الاليمه فى عنبر جوده، وكان شيخا طاعنا فى السن وكيف كان العرق يتصبب غزيرا من اجسام اخوانه المزارعين ليبلل ثيابهم وارض العنبر من شدة الزحام والحر، وكيف كانوا ينادون، "الماء يامسلمين"! ولامجيب.. ثم كيف كانوا يفارقون الحياة وهم جلوس تنحنى رقابهم على اكتاف واجساد بعضهم وهم يلفظون انفاسهم الاخيرة..

تلك كانت جريمة نكراء ووصمة عار لايمحوها الزمن! واندلعت مظاهرات احتجاج صاخبة فى كل من كوستى ومدنى وقدم قادة المظاهرات لمحاكمات سريعة بتوجيه من السلطة الحاكمة.. وفى كوستى ترأس محكمة قادة

المظاهرات القاضى مصطفى حسن وكان قد حقق فى القضية القاضى مهدى شريف الذى انهمرت عيناه بالدموع تأثرا وهو يلخص القضية امام المحكمة تم اعتقالى ـ بصورة ارهابية فى ود مدنى بينما كنت وزميل لى فى طريقنا للمنزل وأرسلونى منتصف ليل نفس اليوم بالقطار لكوستى تحت حراسة مشدده مقيد اليدين.. ولكنى استطعت اقناع الحارس بان لا لزوم للقيد، طالما هو يحمل بندقيه وانا لن احاول الهرب على اى حال.. كان الوقت شتاء "النصف الثانى من شهر فبراير ٥٦" والجو شديد البرودة، وكنت ارتدى ملابس عادية فقد القى القبض على فى الطريق، واذكر اننى برفقه حارسى عندما نزلنا من القطار فى محطة كوستى كانت اسنانى تصطك من شدة البرد.. واودعونى الحراسة فى مركز كوستى، وبقيت بها عدة ايام، فى ظروف قاسية للحد البعيد.. فبجانب برودة الجو، كانت مساحة غرفة الحراسة صغيرة جدا بلا فرش ولا غطاء ووجدت فى الحراسة بعض الاشخاص، ومع ذلك كنا طوال الليل، نستقبل معتقلين جدد، لجرائم مختلفة وكان بعضهم سكارى.. ولايسمحون لنا بالخروج ليلا، حتى لقضاء الحاجة، فقد احتاطوا لذلك بان وضعوا معنا داخل غرفة الحراسة جردلا لهذا الغرض!... ولما ضاق بى الحال طلبت ان يدخلونى السجن وبذلت جهدا كبيرا لتحقيق هذه الامنيه! واخيرا تمت الموافقه على طلبى.. فادخلونى فى عنبر كبير المساحة واعطونى برشا وبطانية قديمة. واعتبرت هذا الذى تحقق نصرا عظيما!..

كان معظم المنتظرين فى هذا العنبر، مقيدين بالسلاسل، وهى علامة من يكون متهما فى جريمة قتل.. وكنت استمع لصليل مزعج عندما يتحرك احدهم لقضاء حاجة فى الليل.. ولكن مع ذلك كنت خلال فترة وجودى فى السجن اتبادل الاحاديث مع زملائى المساجين، عندما نكون خارج العنابر فى فناء السجن، محاولا التعرف على جرائمهم.. ومن خلال ذلك ازددت يقينا بسوء نظام الادارة الاهلية فى ان جريمة احدهم كانت عدم الوقوف لناظر الخط عندما مر به واخر كانت جريمته عدم الانصياع لاوامر العمدة فى امور خاصة به وهكذا.. وهنا تذكرت ان صديقا لى يدعى يونس الدسوقى فى مدينة كوستى خفيف الدم كان قد اصطحبنى لزيارة محكمة اهلية بالمدينة، ليعطينى الفرصة كما قال للتعرف على نظام هذه المحاكم، وماتصدره من احكام وكنا كلانا نرتدى زى "الافندية" فاستقبلنا الناظر ـ رئيس المحكمة ـ بكل مظاهر التوقير والاحترام، على اعتبارنا ـ لبساطته ـ نمثل بذلك الهندام سلطة الحكومة!.. ثم بدأ يحدثنا ـ وياللعجب عن المواطنين الذين يحكم عليهم

بالسجن، ليوفر للمحكمة الايدى العاملة! وعن اولئك الذين يحكم عليهم بالغرامات الباهظة لتمتلىء خزينة الدولة.. كان صاحبنا يتحدث بجدية، وبروح التفاخر والمباهاه! ولهذا فلم يكن حديث هؤلاء المساجين المظلومين غريبا بالنسبة لى ذلك اننى سبق ان استمعت لرئيس المحكمة ذاك!!.

محاكمة قضية مشروع جوده

سبق لى ان ذكرت انه بعد حادث مشروع جوده القى على القبض فى مدنى وارسلت مخفورا بالقطار فى ليل نفس اليوم الى كوستى حيث بقيت فى الحبس فترة من الزمن ثم اعلن عن تشكيل محكمة برئاسة القاضى عبد العزيز شدو.

ومثلنا امام المحكمة الاخوة حامد شاكر ومحمد عبد الله وفرح وشخصى وكانت التهمة الموجه لاربعتنا هى تحريض مزارعى جوده الامر الذى كانت نتيجة الصدام بين المزارعين والسلطة وما نجم عن ذلك.

كان القاضى شدو شابا مشهودا له بالتعاطف مع الحركة الشعبية الوطنية من منطلق ايمانه العميق باهداف النضال الوطنى وكانت تربطه مع بعض قادة هذه الحركة صلات صداقة وتجاوب فكرى.. كما ان الظروف التى تمت فيها المحاكمة بعد حادث موت ذلك العدد الكبير من المزارعين اختناقا فى ذلك العنبر جعل موقف السلطة الحاكمة ضعيفا لابعد الحدود وكان هذا سببا فى تغيير موقفها من التشدد الى محاولة اسدال الستار على المأساة.. ولهذا كله لم تستغرق المحاكمة زمنا طويلا ـ فقد انكرنا تهمة تحريض المزارعين ولكنا جميعا اتخذنا موقف المؤيد لمطالب المزارعين العادلة والمستنكر لحادث قتلهم فى العنبر. وجاء قرار المحكمة تبرئة ساحتنا على اعتبار ان الاتهام لم يستطع اثبات ادعائه رغم اقتناع المحكمة بمسئوليتنا ولهذا فالمحكمة تترك المتهمين لضمائرهم. وخرجت مظاهرة من قاعة المحكمة تهتف بحياة العدل..

وكان لابد فى ذات الوقت من التحقيق فى قتل المزارعين فى العنبر وتقديم المسئولين للمحاكمة وكان ان انعقدت لهذا الغرض محكمة برئاسة قاضى المديرية السيد/ عبد الرحمن النور واصدرت حكمها بالسجن على كل من الضابطين على الفضلى وغندور..

الفصل السادس

الحركة الشيوعية السودانية

تقديم

نضال الطلاب

الحركة السودانية للتحرر الوطنى

مرحلة جديدة

الانقسام

الحزب الشيوعى فى الجزيرة

الصراع فى العلن

مكتب الحزب الشيوعى بمصر

استئناف الصراع

خاتمة المطاف

الفصل السادس

الحركة الشيوعية السودانية

تقديم:

خلال سردى لهذه التجربة، تعرضت فى مواضع متفرقة، لتاريخ انتمائى للحركة الشيوعية، وللانشطة التى اشتركت فيها ـ من موقع الالتزام السياسى المخلص لتلك الحركة، وللانجازات، التى اعتبرها هامة، فى مجالى التنظيم والحركة الشعبية، التى اسهمت فيها مع اخوة، لازلت، وسأظل اكن للكثيرين منهم، احياء وامواتا، الاعزاز والاكبار.. ولا زلت وسأظل، أنظر لتلك الانجازات، على اعتبارها خطوات تاريخية هامة، على طريق تقدم شعبنا، ومستقبل نضاله.

ولكنى رأيت ان ذلك التناول المتفرق، وغير المنظم، لا يفى بغرض تبيانى لتجربة انتمائى للحركة الشيوعية السودانية.. الامر الذى أراه ضروريا، وربما كان ذا فائدة عامة.. لاسيما وان معظم واهم ملامح تجربتى فى الحياة، فى «تلك الايام» كانت من منطلق ذلك الانتماء.. وعليه قررت ان اخصص هذا الفصل، من هذا الكتاب، لهذه التجربة الهامة فى مشوار حياتى.. وللاسف، فاننى ساعتمد، فى الاغلب الاعم، على الذاكرة فى سرد هذه التجربة، لعدم وجود وثائق فى حوزتى.. فطبيعة العمل السرى، فى تلك الظروف، لم تكن تسمح بالاحتفاظ بوثائق.. ولهذا اطلب العذر مقدما، لو وقعت فى أخطاء، خاصة بتواريخ الاحداث او الوقائع والاشخاص.. وأرجو ان اؤكد ـ مخلصا ـ ان ذلك ـ لو حدث ـ لن يكون عن سوء قصد..

سأحاول عدم تكرار ما سبقت الاشارة اليه من وقائع، الا فى حدود الحرص على التسلسل التاريخى، او الربط بين الاحداث.. وحتى فى هذه الحالة، سأكون حريصا على الاختصار، ما امكن..

نضال الطلاب

شهد العامان ـ ٤٥ ـ ١٩٤٦ حركة مطلبية وسياسية نشطه وسط طلبة المدارس الثانوية.. فكانت تظاهراتهم الصاخبة في شوارع ام درمان والخرطوم، شيئا مألوفا، برغم ان عدد المدارس الثانوية، ذلك الوقت كان محدودا.. فقد كانت هناك مدرستا وادى سيدنا وحنتوب والمدرسة الاهلية ومدرسة الاحفاد بام درمان.. ومدرسة الخرطوم وفاروق والاقباط بالخرطوم.. لم يكن تنظيم التظاهرة امرا صعبا، بل انه كان في واقع الامر عملا في غاية البساطه ـ فالشعور الوطني العام كان متأججا، بفعل الوعى الوطنى، الذى انتظم انحاء البلاد المختلفة، لاسيما العاصمة والمدن الكبرى، كعطبرة ومدنى وبورتسودان والابيض، والذى لعب فيه مؤتمر الخريجين الدور الرئيسى ـ ثم شهدت هذه الفترة ايضا بداية الوعى والتنظيم النقابى ـ فكانت اضرابات ومظاهرات عمال السكة الحديد بعطبرة.. ثم كان ظهور الاحزاب السياسية الوطنية، والتى ملأت ساحة العمل الوطنى بلياليها السياسية الملتهبة.. وبرز الشعراء والخطباء الوطنيون من امثال مبارك زروق ويحيى الفضلى ومحمود الفضلى وحسن طه ومحمد احمد محجوب والطيب محمد خير واحمد السيد حمد واحمد خير ومحمد عبد الجواد وقاسم امين وعبد المنعم حسب الله، يحيى احمد المرضى والشيخ على عبد الرحمن وغيرهم وغيرهم، وكانت كذلك المقالات الصحفية الحماسية لمحمد امين حسين واحمد السيد حمد في صوت السودان.. كما ان هذه الفترة على وجه الخصوص شهدت مدا ثوريا عارما في الشقيقة مصر، ضد النظام الملكى العميل، فكان حادث كبرى عباس الشهير والذى استشهد فيه عدد كبير من الطلاب المصريين، ومعروف ان ما يجرى في مصر، يجد تأثيره المباشر في السودان، ولهذا كانت مظاهرات طلاب المدارس العليا والمدارس الثانوية، التى ملأت شوارع الخرطوم استنكارا لاحداث مصر، وإدانة للنظام الملكى ومساندة للحركة الثورية المصرية، امرا طبيعيا يعكس صورة من صور التضامن بين الشعبين ـ كما ان مناسبة سفر وفد السودان لمصر لتوضيح موقف شعب السودان للمتفاوضين والمصريين والبريطانيين عام ١٩٤٦ كانت حافزا لتظاهرات طلابية عارمة احتشدت يوم سفر الوفد بساحة السكة الحديد بالخرطوم لوداعه ـ واذكر اننى كنت واحدا من خطباء ذلك اليوم المشهود..

نعبر عن سخطنا على هذه المادة، بترديد قول الشاعر:-
جاروا باسم الامن واستتبابه
يا ليته يبقى بلا استتباب

وفى تظاهراتنا كنا نردد نشيد مؤتمر الخريجين:
صه ياكنار وضع يمينك فى يدى..
ونهتف بحياة وادى النيل، والكفاح المشترك بين شعبى وادى النيل وسـ وط الاستعمار..

وسط هذا الهياج الطلابى والنضال الوطنى النظيف المتجرد، برزت قيادات الحركة الطلابية فى للرحلة الثانوية شاكر مرسال، واحمد محمد خير والطاهر عبدالباسط وعبدالقيوم محمد سعد وآدم ابوسنينة ومحمد احمد قاسم وحسين عثمان منصور وحبيب مدثر واحمد زبير رشيد وصديق مدثر وعبدالعزيز الامين ومحمد الجواد السراج ومعاوية ابراهيم ومصطفى حسن (مصطفى جيش) وحسن صالح الشوية وعبد الرحمن البلك، وغيرهم وغيرهم ـ كثيرون هم..

ومن المدارس العليا محمد سعيد معروف ومحمد عثمان ونى ومحمد عمر بشير وعباس عبد الحميد وطه احمد بعشر وعبد القادر مشعال وغيرهم.

الحركة السودانية للتحرر الوطنى

فى هذا الجـو السيـاسى ـ حركة طلابية ثورية، وحركة نقابية عمالية متصاعدة، وحركة سياسية تقودها احزاب فى عنفوان شبابها، ومنبر سياسى يزخر بالنشاط الوطنى، ممثل فى نادى الخريجين بامدرمان، وصلات حميمة لنضال شعبى وادى النيل. فى هذا الجو كان ميلاد «الحركة السودانية للتحرر الوطنى، كتنظيم سياسى سرى، يتخذ من مبادىء الماركسية اللينينية افكاره وغايات نض الـ.. وكان طبيعيا ان تكون طلائع هذا التنظيم، من السودانيين الذين تلقوا تعليمهم فى مصر، وكانوا قد انخرطوم هناك فى عضوية التنظيمات الشيوعية المصرية ـ كنا نسمع باسماء امثال: محمد امين حسين وعبد الوهاب زين العابدين ـ اما اوائل الذين انخرطوا فى عضوية هذه الحركة، من الذين كانـوا الى ذلك الوقت فى مراحـل الدراسة، فكانوا هم محمد سعيد معروف

في هذا الوقت من عام ١٩٤٦ كان قد تم تكوين الاتحاد العام لطلبه المدارس الثانوية.. وقد لعب الاخوة الطاهر عبد الباسط وشاكر مرسال ومحمد احمد قاسم وحسين عثمان منصور وعبد الرحمن البلك وعبد الكريم مهدى وعبد العزيز الامين وشخصي دورا بارزا في تكوينه.. ومن هؤلاء وآخرين تكونت اول قيادة للاتحاد..

كانت المدارس الثانوية في (تلك الايام) تعج بالنشاط السياسى والادبى.. وكانت الجمعيات الادبية في المدارس، ساحات مناسبة لممارسة كل اوجه النشاط وتنمية المواهب.. وفي الاجتماعات السرية التى كنا نعقدها ليلا، كنا نقرر قيام التظاهرات ونقوم بالاتصالات اللازمة لتحقيق هذه الغاية ـ وكما سبق لى ان ذكرت، فان الخروج في التظاهرات السياسية ضد الاستعمار لم يكن يحتاج لمجهود يذكر.. فالجو مناسب، والمواطنون معبأون بالسخط ضد الاستعمار... وقد كانت تظاهراتنا الطلابية تلك، تجد المساندة والعطف، من قبل جماهير المواطنين، فكانوا يقابلوننا بالتصفيق والزغاريد.. بل وكنا نجد التأييد والتشجيع من قبل اساتذتنا الوطنيين في المدارس ـ امثال المناضل المرحوم ازهرى والاساتذة محمود الفضلى وعبد الله عشرى ومحمد حمزه وعبد الكريم ميرغنى وغيرهم...

كانت حركتنا الطلابية، في بداية نشأتها، حركة قومية.. برغم قيام الاحزاب، والاتجاهات السياسية المتباينة.. وكان هدفها الاوحد هو النضال ضد الاستعمار لتحقيق حرية الوطن ـ ثم بدأ طابع الاحزاب الاتحادية، يطغى على مسار الحركة الطلابية واتجاهاتها..

ذلك ان هذه الاحزاب، قد اتخذت الخط الوطنى المعادى للاستعمار وسياساته ومشاريعه.. فكان من الطبيعى، ان يتجاوب معها الطلاب... بينما وقف حزب الامة مهادنا للاستعمار البريطانى مؤيدا وداعما لسياساته ومشاريعه.. واذكر ان بعض قادة حزب الاشقاء، امثال الاستاذ محمود الفضلى كانوا يحرضوننا للقيام بالتظاهرات، ويبدون تعاطفهم معنا، وتأييدهم لنا، لاسيما عندما نقع فى ايدى البوليس، وندخل حراساته ، او نقدم للمحاكمات.. ولازلت اذكر ان المناضل المرحوم محمد نور الدين، قد دفع لى ولزميل لى غرامة ثلاثة جنيهات لكل كانت قد وقعتها علينا محكمة ام درمان الاهلية برئاسة المرحوم هريدى.. لقد كنا فى الواقع «زبائن» دائمين امام هذه المحاكم، كما كان يطلق علينا المرحوم هريدى، لكثرة ما كنا نمثل امامة، فى قضايا التظاهرات، تحت المادة ١٢٧ (أ) ازعاج السلام العام. وكنا كثيرا ما

وحسين عثمان ونى. ومحمد عمر بشير وعباس عبد المجيد وخالدة زاهر وزورى سركسيان فى المدارس العليا وعبد القيوم محمد سعد وآدم ابوسنينة واحمد محمد خير وغيرهم فى الثانوى.

كانت القاعدة التى يتم على اساسها التجنيد لعضوية هذه الحركة، هى ان يكون المرشح قائدا جماهيريا فى مجاله، وان يخضع لفترة اختبار (ترشيح)، تطول او تقصر حسب مؤهلات المرشح واستعداده - وهذا هو السبب فى ان كل قيادات هذه الحركة الاوائل، والحزب الشيوعى السودانى فيما بعد، كانوا جميعا، فى الاغلب الاعم، من القادة الشعبيين، فى مجالاتهم الطلابية والنقابية - ويقينى ان هذه الحقيقة هى التى تفسر النشاط المتسع، والنفوذ الجماهيرى الكبير الذى استطاع هذا التنظيم السرى ان يحققه فى فترة زمنية قصيرة برغم صغر حجمه - الامر الذى يؤكد - من واقع التجربة - ان التنظيم او الحزب السياسى ذا النوعية الممتازة من العضوية، اكثر مقدرة فى مجالى العمل التنظيمى والجماهيرى، من ذلك التنظيم الفضفاض المترهل العضوية.

وقد كنت واحدا من الذين تم تجنيدهم لعضوية الحركة السودانية للتحرر الوطنى، فى تلك الفترة، وعلى ذلك الاساس.. وكان ذلك على ما اذكر فى النصف الثانى من العام ١٩٤٦م، وقد جمعتنى والاخ احمد الزبير رشيد اول خلية ننتمى لها معا، فى الحركة السودانية للتحرر الوطنى، وكان المسؤول عن هذه الخلية هو الدكتور عبد الوهاب زين العابدين.. ولم نكن نعرف اى معلومات اخرى عن هذه الحركة، خارج هذا الاطار الضيق.. عدا اننى تعرفت من خلال عملية تجنيدى على الاخوين عبد القيوم محمد سعد وآدم على آدم ابو سنينة.. وهذه طبيعة عمل معروفة للنشاط السرى.

كانت وحدتنا تعقد اجتماعين فى الاسبوع أحدهما تنظيمى، تستعرض فيه أوجه نشاطنا واتصالاتنا، ونتعرف من خلال ذلك على واجبات الاسبوع المقبل، والآخر ثقافى نتدارس فيه النظرية الماركسية اللينينية، من كتيبات صغيرة كانت تقدم لنا - البيان الشيوعى، المادية الجدلية، تطور المجتمع وغيرها - واذكر اننى وزميلى فى الخلية كنا مهتمين جدا بهذه الدراسات.. وكان كلانا يحتفظ بدفتر صغير، نلخص فيه ما يشرحه لنا الدكتور عبد الوهاب من محاضرات - وكنا كلانا معجبين بالطريقة التى اتبعها دكتور عبد الوهاب فى شرح النظرية - ويبدو انه استفاد من دراسته العلمية كطبيب...

لقد شعرت، وانا أمارس نشاطى السياسى الطلابى - بعد انتمائى لعضوية الحركة السودانية للتحرر الوطنى، اننى اصبحت قائدا حقيقيا، وان

عفوية الحركة قد انتهت وحل محلها التخطيط المسبق لكل تحرك وفق أهداف معلومة.. كان د. عبدالوهاب زين العابدين ـ رحمة الله عليه ـ رجلا جادا، يتمثل ذلك فى محافظته بدقة متناهية على مواعيد الاجتماعات، وفى تحضيره الجاد لها، فلا تضيع من وقت الاجتماع دقيقة دون فائدة، اضافة الى مرونته، وسعة صدره، ودماثة خلقه، واستقامته.. وكانت هذه الصفات ذات اثر عظيم فى نفسى ـ ذلك اننى مارست العمل الوطنى منذ وقت مبكر، ومن منطلقات دينية متطرفة، كما سبقت الاشارة.. واعتقد ان ذلك كان تفسير انه عندما طلب منا المسئول، فى أول اجتماع للخلية، أن نختار اسماء «حركية» وقع اختيارى على اسم «صادق» الذى عرفت به بعد ذلك، طوال سنين انتمائى للحركة الشيوعية السودانية، واعتقد اننى حرصت ـ قدر استطاعتى ـ على الالتزام بما يرمز اليه هذا الاختيار.

كما قلت، فان أنشطتنا السياسية الطلابية، لم تعد عشوائية، بعد الانتماء للحركة السودانية للتحرر الوطنى ـ فقد كنا نقرر سلفاً قيام التظاهرات الطلابية، فى مناسبات وبأهداف محددة، وكنا نعقد الاجتماعات السياسية، ونحرر صحف الحائط، لتحقيق اهداف مرصودة.. ثم بدأنا لأول مرة نمارس واجبات جديدة ـ تلك هى توزيع المنشورات، وكتابة الشعارات على الجدران... والتجنيد، بشكل مسئول، لعضوية الحركة كان توزيع المنشورات، وكتابة الشعارات، تتطلب الشجاعة، وحسن التصرف.. تتطلب كذلك التنظيم الدقيق ـ فلابد من تنظيم استلام المنشورات من يد الى يد، ولابد من تنظيم استلام وسائل الكتابة، والالتزام الدقيق ببدء العمل. ولابد ان تكون المنطقة المراد توزيع المنشورات بها، وكتابة الشعارات على جدران منازلها محددة ومعروفة، حتى تسهل الرقابة على أداء الكوادر، ومدى التزامهم... كما كنا نشعر بالارتياح والابتهاج، عندما ننجز هذا العمل فى المستوى المطلوب من الاتقان والجودة..

كان الواحد منا يستيقظ مبكرا ليلقى نظرة اعجاب على الشعارات التى استطاع كتابتها الليلة السابقة، فقد كنا نكتب الشعارات فى وقت متأخر جدا من الليل، أما المنشورات فيكفى مجرد حلول الظلام لتوزيعها.. كنا نستمتع نهارا برؤية جدران المنازل، أو الأماكن العامة، التى تم طلاؤها حديثا باللون الابيض، فنحدد بدقة موقعها لنزورها ليلا، لكتابة الشعارات عليها باللون الاحمر... وكم كان غضب اصحابها عموما أو سرورهم نادرا!!.. كم كانت هذه

عندما انشىء الحزبان الكبيران ـ حزب الاشقاء وحزب الامة، اهتم كل حزب بتكوين تنظيم لشبابه، ليستطيع استغلال طاقات الشباب القادرة، لتحقيق برامج عمله.. وازاء هذا قررت الحركة السودانية ان نغزو ـ نحن الشباب اعضاءها ـ هذين التنظيمين، لنسخرهما فى العمل لصالح سياسات الحركة، مستغلين امكانات الحزبين الكبيرين.. وأذكر انه كان من نصيبى، الانضام لشباب حزب الامة.. وقد استطعنا ان نحدث نشاطا شبابيا متقدما، وان ندخل فى مواجهات مع قيادة الحزب عدة مرات ـ كان آخرها عندما طلبنا من قيادة الحزب ان يشترك وفدها مع بقية اعضاء وفود الاحزاب الاتحادية فى السفر لمصر، كوفد واحد يمثل السودان ويعكس وجه نظره فى المفاوضات بين شريكى الحكم الثنائى عام ١٩٤٦م، على اعتبار ان هذه الخطوة هامة، للتعبير عن وحدة السودان ازاء قضيته المصيرية ـ ولكن عبدالله بك خليل سكرتير حزب الامة وقتذاك ـ رحمه الله ـ وقف امام جمعنا بدار الحزب، مهتاجا مغتاظا، واصفا إيانا بالاولاد الصغار، آمرا جمعنا بمغادرة الدار، معلنا قراره الحازم، بحل تنظيم شباب حزب الامة، وهو القرار الذى ظل ساريا فيما بعد! وتحولنا بعد ذلك جميعنا لشباب حزب الاشقاء، الذى اتاح لنا قدرا من الحركة، واستطاع ان يستوعب جل طاقات الشباب، مع انه قد حدثت بعض المشاحنات، عندما بدأت الراية المستقلة للحركه السودانية فى الظهور، ويشتد عودها ـ وقد كان على الازهرى مشهودا له بالتصدى باقزع السباب للشيوعيين من الشباب عندما يشتد الصراع..

وهكذا انقضت فترة زاخرة بالنضال الوطنى، فى مرحلة دراستنا الثانوية.. ليتسلم الراية من بعدنا، اخوة آخرون ليواصلوا مسيرة الثورة الطلابية ضد الاستعمار ومشاريعه، مرتكزين على تراث نضالى ملىء بتضحيات وخبرات العمل الطلابى الوطنى، وقد اكتمل بنيان الاتحاد العام للطلبة الثانويين واشتد عوده..

مرحلة جديدة

انقطعت صلتى بفصول الدراسة النظامية اوائل العام ١٩٤٨م، وقد اكملت المرحلة الثانوية، وولجت باب الحياة العملية، معلما بمدرسة الكاملين الاهلية الوسطى بالجزيرة، حيث بقيت بها عاما دراسيا واحدا، انقطعت صلتى خلاله، بعضوية الحركة السودانية.. فلم تكن هذه الحركة قد امتد نشاطها خارج العاصمة بعد... ولكن صلتى بالعمل العام لم تنقطع.. فقد مارست بعض اوجه النشاط العام داخل المدرسة وخارجها بالشكل الذى تعرضت لتفصيله فى مرحلة سابقة.

المغامرات، تجد ى نفوسنا ـ نحن الشباب ـ ارتياحا عظيما.. ولا شك أن هذا الشعور بالارتياح، لمثل هذه الاعمال، ينعكس اخلاصا وتفانيا فى خدمة تنظيمنا السياسي، الذى استطاع ان يزحم لنا الوقت بأعمال جريئة ومتصلة، ذات طابع وطنى نضالى ضد الاستعمار الاجنبى. هذه الاعمال كان يؤديها الكادر العادى، لا القيادى.. بحجة الحفاظ على سلامة القياديين!! وأذكر اننى لم اكن مرتاحا لهذا التمييز فى القيام بواجبات العمل الوطنى ـ ولا زلت أعتقد ان هذا، كان واحدا من أسباب اوجه القصور والخلل فيما بعد ـ لاسيما وان كل هذا النشاط للحركة كان فى بدايته، فالحركة السودانية للتحرر الوطنى كانت ذاتها تنظيما وليدا يافعا.. واننى لعلى ثقة الآن ان بعض الكوادر، الذين تسلموا فيما بعد مراكز قيادية مرموقة فى الحركة والحزب، لم يوزعوا منشورا، ولم يكتبوا شعارا واحدا على حائط!!.. ولم يشتركوا فى قيادة احدى المظاهرات ـ وهذا يعنى أن هؤلاء، فقدوا، من البداية، عنصرا هاما، من عناصر التدريب على اساليب العمل النضالى، ولا شك ان هذا ـ ضمن ظروف اخرى ـ كان له اثر سلبى على كفاءتهم والاساليب التى مارسوها فى القيادة ـ ويبدوا ان هذا الخلل جاء نتيجة لأن بعض الكوادر القيادية، جاءوا من الشقيقة مصر، قياديين جاهزين (سنفوار!) بحكم الوصاية التى كانت تمارسها الحركة الشيوعية المصرية ممثلة فى تنظيم (حدتو) على الحركة الشيوعية الوليدة فى السودان.. ولهذا فقد تأثرت أساليب عمل الحركة السودانية للتحرر الوطنى، بأساليب الحركة الشيوعية المصرية ـ فقد كان التقليد ـ فى بداية الامر ـ أعمى!. كنا، للمثال، نعقد اجتماعاتنا فى اماكن، نبالغ فى اتخاذ التحوطات الامنية بشأنها.. ونكتب محاضر الجلسات فى الورق الداخلى الخفيف جدا لعلبة السجاير، وبخط دقيق للغاية، ليسهر اخفاؤه او التخلص منه ساعة الخطر.. ولكل منا اسم مستعار.. واذا تخلف واحد من الذين كان عليهم ان يحضروا اجتماعا ما، اكثر من خمس دقائق من الزمن المحدد لبدء الاجتماع، نفض الاجتماع فورا، على اعتبار ان هذا الذى تخلف، ربما كان من اعوان الامن، ويخطط لالقاء القبض علينا متلبسين!! يحدث هذا فى ذلك الوقت، الذى لم يكن فيه بوليس حكومة السودان قد علم ـ مجرد العلم ـ بان فى البلاد نشاط شيوعى، ولم تكن السلطة الاستعمارية بالتالى، قد انشأت جهازا او رسمت تخطيطا لمكافحة ذلك النشاط أضف الى هذا ـ واكثر منه خطرا ـ ان طريقة التعامل والعلاقات داخل الحركة، قد تأثرت ـ هى كذلك ـ بالبيئة المصرية.. وهى طرائق تعامل وعلاقات تختلف كثيرا عن تلك فى البيئة السودانية العشائرية..

بعد نهاية العام ١٩٤٨م، عدت للعاصمة، حيث عملت بالتدريس مرة اخرى، بمدارس الاحفاد، فى بداية العام ١٩٤٩م، واستأنفت صلتى مرة اخرى بالحركة الشيوعية ـ وابرز عمل اسهمت فى انجازه كان تكوين نقابة معلمى المدارس الاهلية الوسطى ـفقد جمعت مدارس الاحفاد فى ذلك الوقت، عددا من المعلمين الوطنيين، وبعض اعضاء الحركة، اذكر منهم الاخوة ـ عبدالخالق حمدتو والتجانى الطيب بابكر ومحمد بدرى والطيب ميرغنى ومصطفى مدنى وعثمان مخجوب.. واذكر اننى فى هذه الفترة قد كرست جل وقتى، ان لم يكن كله، للنشاط النقابى.. وكان هذا ـ على ما اذكر ـ محل انتقاد لى داخل التنظيم ـ على اعتباره نوعا من انواع الانحراف.. واذكر اننى اصبت بخيبة امل شديدة لهذا الانتقاد، الذى لم ادرك معناه مطلقا ـ فقد كنت، ولا زلت، اعتقد ان اخلاص الفرد ـ أى فرد ـ وتفانيه فى خدمة زملاء مهنته، فضيلة من الفضائل، التى يتصف بها الانسان، وليست رذيلة بأى حال.. ولست ادرى الى الآن، ان كان ذلك الاتهام يستند على أساس من أسس العمل الماركسى، ام انه كان خطرفة من خطرفات مسئول فى الحركة الشيوعية!!؟ وعلى أى حال فاننى لم اضع لذلك الانتقاد اى اعتبار، واستمر عطائى فى النشاط النقابى وسط زملائى، بذات التفانى والحماس، للدرجة التى جعلت ادارة مدارس الاحفاد، ممثلة فى عميدها الاستاذ يوسف بدرى، تتحين الفرص للتخلص منى، وكنت وقتها سكرتيرا لنقابة معلمى المدارس الاهلية الوسطى ـ وقد حانت هذه الفرصة، بطلب مصلحة المعارف، اختيار احد المعلمين ليذهب فى كورس لفترة سنتين، بمعهد التربية ببخت الرضا.. وكنت ذلك المعلم المحظوظ جدا فى نظر زملائى، المغضوب عليه جدا فى نظر ادارة المدرسة!. وفى الواقع فقد كان المعلمون ـ خاصة فى المدارس الاهلية ـ يسعون جادين للحصول على فرصة التدريب هذه، والتى تمنح المعلم براءة الكفاءة المهنية، المعترف بها رسميا، وتجعله مهيأ لتدرج وظيفى، يضمن له وضعا اقتصاديا حسنا..

وهكذا بدأت مرحلة جديدة، بالتحاقى بكورس السنتين بمعهد التربية ببخت الرضا، ولكن فى هذه الحالة لم تنقطع صلتى بالتنظيم، فقد وجدنا عملا منظما بالمعهد يقوده الاخوان مكاوى خوجلى وعبدالرحمن احمد ومن اعضائه البارزين الاساتذة احمد محمد سعد ومحمود محمد على.. كما كان لهذا التنظيم فرع ببلدة الدويم ـ ولا أريد هنا أن اعيد ما سبق لى أن ذكرته من تفاصيل عن هذه الرحلة، ولكنى اختصارا اقول انها كانت فترة نشاط متعدد الجوانب، اشترك فيه زملاء عديدون ـ اذكر منهم الاخوة بخيت محمد زكى

وهرون عبد الحليم والريح مالك وابراهيم مجذوب ومحمد محجوب شورة (كتك) والطيب ميرغنى .شكاك وغيرهم ان اهم ماكان يميز ذلك النشاط، هو اننا لأول مرة، نخرج من حيز الطلبه والمعلمين فقط، لحيز المواطنين الارحب من عمال ومزارعين وتجار.. فتكون لنا خلايا بين عدد من هؤلاء فى بلدة الدويم، وتتوثق صلاتنا فى أماكن تجمعهم - مثل نادى الاشبال ونادى الوطن... صحيح ان ذلك تم فى نطاق ضيق، ولكنه مع ذلك كان تجربة جديدة ومفيدة - كنا نُضمّن نشاطنا تقارير دورية للمركز - كما كنا نجد مجالا أرحب فى عرض هذه التقارير ومناقشة محتوياتها، فى الاجهزة، عندما نذهب للعاصمة فى العطلات الرسمية او لبعض الأمور الهامة.

فى نهاية فترة التدريب، التى امتدت عامين، كان قرار فصلى واخوة آخرين، وشطب اسمائنا من كشف المعلمين، كما سبقت الاشارة. وهكذا وجدنا انفسنا بلا عمل، وبلا دخل... وهنا اذكر ان الاخ ابراهيم مجذوب - وكان أحد المفصولين - عمل كسائق «لورى» يسافر بين كردفان والخرطوم.. وكان الاخ ابراهيم مشهورا بيننا - نحن زملاءه - بأنه شخصية مرحة ومغامرة وشجاعة، وليس فى نظره من كبير غير «الجمل»! كما يقول أهلنا فى وصف الرجل الشجاع المغامر.. أما أنا فقد حاولت ايجاد وظيفة مفتش غيط بالجزيرة فلم اوفق لظروف سبق لى ذكرها.. فوجدت نفسى - واقعا - متفرغا سياسيا.. كان ذلك فى حوالى اكتوبر ١٩٥١م - فالتحقت بالعمل الحزبى فى الدائرة (٢) ام درمان، واصبحت مسئولا عن قيادة بعض الوحدات -..

الانقسام

ولم يمض على عملى بالدائرة (٢) زمن طويل، حتى حدث الانقسام الاول فى الحزب الشيوعى السودانى.. وكنت - بالصدفة - اول الذين اكتشفوا هذا الانقسام... كان ذلك عندما ذهبت لمنزل الاخ بابكر احمد موسى بسوق الشجرة، حسب سابق اتفاق، لعقد اجتماع للجنة الدائرة (٢) - على ما أذكر - وعندما طرقت باب المنزل، خرج لى الزميل بابكر، متجهم الوجه، مقطب الجبين. على غير عادته، فالمعروف عن الاخ بابكر انه شاب أديب صقيل المشاعر، دائم البشاشة - وعندما سألته أن يفتح لى الباب رفض قائلا «لدينا اجتماع يازميل» وبدأت المعركة ساعتها، وكان معركة ضاربة.. ولهذا قصة...

قبل أن يُبعد - ابن خالى - الاخ عبد الخالق محجوب - رحمه الله - وزملاءه من مصر لنشاطهم السياسى، كان المرحوم الاخ عوض عبد الرازق

الحزب ومقدرته... وهم انفسهم أصيبوابالاحباط - على مايبدو - فلم يلتئم شملهم كتنظيم، ذى قدرات نضالية، وانحبس نشاطهم في علاقات صداقية شخصيـة حميمـة ونشـاط فكرى متقطع... واصبح الزميل «عامر» الاسم الحـركى لعـوض عبدالرازق فيما بعد كاسم «تروتسكى» الحزب الشيوعى السوفيتى، يشبه به كل من يخرج على نظام الديمقراطية المركزية الحديدى، أو على فكر قيادته ممثلة فى الزميل «راشد» وهو الاسم الحركى للمرحوم عبدالخالق.

بعد تصفية الانقسام، واصلت العمل كمسئول سياسى للدائرة (٢) ام درمـان، وتـابعنـا الجهـد الفكرى والتنظيمي، فى جميع وحدات الدائرة المنتشرة فى العديد من أحياء المدينة، لتصفية الآثار التى خلفها الانقسام، وللاستمـرار بنشـاط اكبـر فى العمل النضالى فى مجالات الطلاب والمعلمين والعمال، وفى مجال التجنيد لعضوية الحزب، والاندفاع بهمة اكبر فى مجال توزيع منشورات الكشف والاثارة، وكتابة الشعارات الملتهبة على الجدران.

وكـان ملاحظا، خلال هذا النشاط، أن الاخوة القياديين «الكبار» فى الحـزب، ذوى الاسمـاء اللامعة كشيوعيين، لا وجود لهم فى هذا النشاط، الملتصق بقواعد الحزب - وكنا نرى دورهم قاصرا على مدارس الكادر - وهى الحلقات الدراسية التى تعقد من وقت لآخر لتثقيف كادر الحزب بالنظرية الماركسية - اضافة الى مخاطبة الجماهير فى الليالى السياسية - وكان هؤلاء - فى الغالب - من عناصر المثقفين المنحدرين من أصول «برجوازية صغيرة» وهى أصـول ظلت تطارد المنحـدرين منهـا شتى صنوف الاتهام بالانحراف، فى حالات ارتكاب أخطاء حقيقية، أو توهم ارتكاب مثل تلك الاخطاء - اختصارا أقول إن دور المثقفين الكبار عموما فى حياة الحزب الداخلية، لم يكن متوازنا مع ثقل وجودهم العددى، وتأثيرهم وسمعتهم الجماهيرية.. هذا على الرغم من أن قلة من القيـادة الفعلية للحزب ينطبق عليها وصف الانحدار من طبقة «البرجوازية الصغيرة» وعلى رأس هؤلاء السكرتير العام للحزب، الزميل راشد نفسه.. وهنا اذكر أن الاخ المرحوم الجنيد على عمر، وكان قد تخرج من كلية الحقـوق من مصر، وعنـدمـا عاد، كان عليـه ان يجلس لامتحان المعادلة، ليتحصـل على رخصـة المحاماة - فكان اعتراض القيادة، أن العمل بمهنة المحاماة يجعله يعيش مع هذه الفئة من البرجوازية الصغيرة، وسيكون ذلك مدعاة لافساد تربيته الثورية! فكان أن اصبح محترفا سياسيا، الى أن حدث ما حدث ومات - رحمة الله.... أما الذين عملوا بالمحاماة من أقرانه وزملائه وأصدقائه، فهم الآن فى اتم صحة ورغد من العيش... وربما كان هذا دليلا على صدق الحس الثورى!.. لست أدرى! ولله فى خلقه شئون!

اولسكرتير عام للحركة السودانية للتحرر الوطني، واستمر كذلك لفترة من الزمن.. وعندما جاء المرحوم عبدالخالق ونخبة من زملائه - هم - على ما اذكر - احمد سليمان والتيجانى الطيب بابكر وعبد الرحمن عبد الرحيم الوسيله - رحمه الله. والمرحوم الجنيد علي عمر.. وقد كانوا خمستهم أصدقاء حميمين، واعضاء بارزين فى الحركة الشيوعيه المصرية تنظيم (حدتو)، لكن عبد الخالق كان وضعه القيادى مرموقا، ولهذا فقد كان الاتجاه أن يتولى هو قيادة الحركة الشيوعية السودانية مدعوما بأولئك الاصدقاء.. وبتوصية «هنرى كوريل» سكرتير (حدتو) وقد استطاع دون عناء ان يحقق هذه الغاية، فيصبح سكرتيرا عاما للتنظيم، خلفا للاخ عوض عبدالرازق - وأعتقد انه منذ ذلك الحين، اشتعلت نار المنافسة بين الرجلين.

بدأ الصراع بمناقشات حول دراسة النظرية الماركسية فى داخل التنظيم، ثم تطورت هذه المناقشات لاتهامات متبادلة بالانحراف - يتهم عوض عبدالرازق وانصاره عبدالخالق، بأنه يعمل على حجب أسس النظرية الماركسية اللينينية عن اعضاء الحزب، وفى هذا اضعاف للمقدرات الثورية للحزب، وفتح لباب الانحرافات الانتهازية.. فبدون النظرية الثورية، يتخبط العمل الثورى فى الظلام - ويرد عبدالخالق وأنصاره على هذا الاتهام بقولهم، إن عوض وزمرته يريدون أن يحبسوا قدرات الحزب، فى المناقشات النظرية المعزولة عن العمل النضالى الثورى، فى الحجرات المغلقة، وبهذا يسعون لتحنيط قدرات الحزب، واغراقه فى المناقشات النظرية غير المفيدة -.

وقد تطور هذا الصراع الفكرى لحالة الانقسام، الذى كانت قاعدته التنظيمية دائرة ام درمان «الدائرة (٢)» - وهنا أذكر أن القيادات ألتى خرجت مع عوض عبدالرازق فى الانقسام كانوا هم الاخوة! بابكر احمد موسى وتوفيق اسحق وبدر الدين سليمان وونى وابو المعالى عبدالرحمن وسيد احمد نقدالله - رحمه الله - والتيجانى الطيب والرشيد نايل ومحجوب البدوى وميرغنى على مصطفى وغيرهم - .

لقد شهدت تلك الأيام صراعا حادا، واجتماعات ومناقشات عنيفة، فردية وجماعية، امتدت أياما عديدة.. وقد شارك بفعالية فى هذه الحملة ضد هؤلاء الذين اطلقنا عليهم اسم «المنشفيك» الاخوة المرحوم عبدالرحمن عبدالرحيم الوسيلة والتيجانى الطيب بابكر وعباس على ومحمد احمد عمر واحمد سليمان والجنيد على عمر وغيرهم كثيرون.... واستطعنا فى فترة وجيزة، ان نصفى قاعدة الانقسام، ولم يعد لهؤلاء «المنشفيك» أثر يذكر على كفاءة

بجانب مسئوليتى فى العمل بالدائره (٢) كان على ان اساعد فى ادارة جريدة «الجهاد» لصاحبها المرحوم الاستاذ عبدالمنعم حسب الله، ولكن الحزب هو الذى كان يتولى اصدارها.. ولم أبق فى هذه المسئولية فترة طويلة.. فبعدها تقرر ذهابى للعمل كمسئول سياسى لمديرية النيل الازرق - وهى الاقليم الاوسط بكامل حدوده الحالية..

الحزب الشيوعي فى الجزيرة

لقد تعرضت بشكل يكاد يكون تفصيليا - لمجمل تجربتى فى مجالات العمل التنظيمى والجماهيرى، فى مديرية النيل الازرق عموما، ومنطقة الجزيرة على وجه خاص - ولكنى أعتقد أننى لم اتعرض للحياة الداخلية للحزب بصورة كافية..

كان الشكل التنظيمى للحزب يتمثل فى قيادة على مستوى المديرية، تتمثل فى لجنة المديرية، وقيادات على مستوى المدن الكبرى داخل المديرية تتمثل فى لجان الدوائر، تحت قيادة لجنة المديرية، ولجان وحدات على مستوى الأحياء والقرى فى حدود كل دائرة، وتحت قيادتها.. وكانت تعقد اجتماعات أسبوعية منتظمة عموما، لكل هذه الاجهزة، ونرفع التقارير من المستوى الأسفل الى المستوى الاعلى، كما كنا نرفع تقارير منتظمة بنشاطاتنا، عندما تنعقد دورات اللجنة المركزية، أو المكتب السياسى.. كنت قد انتخبت عضوا فى اللجنة المركزية والمكتب السياسى والسكرتارية المركزية، وهذه الاخيرة هى القيادة اليومية، لعمل الحزب.. واذكر انه تم فيما بعد اختيار الأخ المرحوم الأمين محمد الامين عضوا فى اللجنة المركزية فأصبحنا نحضر اجتماعاتها معا..

كانت مشكلات العمل الداخلى للحزب، تتمثل - فى البداية - بصورة رئيسية، فى صعوبة الاتصال، وانعدام وسائل الطباعة والنشر، والامكانات المالية... إن ما كان يشاع من أن الحزب له امكانات مالية ضخمة مستوردة لم يكن صحيحا، على الأقل فيما كنت أعرفه كمسئول سياسى لمديرية النيل الازرق - لقد كنا نطبق بحزم مطالبة الاعضاء بنسبة الـ ٥٪ من الدخل كاشتراك شهرى، اضافة الى ماكنا نطلبه من حين لآخر من المقتدرين من تبرعات - وللحقيقة فان تضحيات ضخمة كانت تبذل من الاعضاء فى هذا الصدد.. وللمثال فقط اقول أنه عندما تم اختيارى - بصفة رسمية علنية - ضابطا لاتحاد عام مزارعى الجزيرة والمناقل، كنت أمنح مبلغ خمسين جنيها كمرتب شهرى.. وكان كل هذا المبلغ يذهب لمالية الحزب، دون ان ينالنى منه شىء.. وكان هذا المبلغ - ذلك الوقت - شيئا يذكر!!



* لجنة الحزب الشيوعى السـوداني بمديرية النيل الازرق .

وهم من اليمين : حسـان محمد الامين وخلفه خوجلى ويعقوب عيسي وصديق محمد وعبد اللطيف محمـد بشير والمؤلف وعبد الحليم عمر حسب الله .

الصراع فى العلن

إزاء فشلنا فى توفير العدد الاضافى من المتفرغين السياسيين. لجأنا فى لجنة المديرة لخطة تركيز العمل، وإيقاف التوسع الذى لا نملك امكانات قيادته، والاشراف عليه.. ووضعنا خطة جديدة تقضى بالتركيز على المدن الكبيرة، وقرى الأسواق داخل المنطقة المروية. كالحصاحيصا والمحيريبا وطابت والحوش والمدينة عرب والحاج عبد الله. وان يقوم الكادر القيادى المحلى فى هذه المدن والقرى الكبيرة، بقيادة الوحدات كل فى منطقته.. وأن يصبح على العدد القليل من الكادر المتفرغ، قيادة لجان الدوائر. فى هذه الأماكن، فسيكون ذلك فى مقدورهم مع بذله جهد كبير..

وهنا بدأ أول مظهر علنى من مظاهر الصراع. مع قيادة الحزب ممثلة فى السكرتير العام... فقد اتهمتنى هذه القيادة بالعمل لتصفية حركة المزارعين!.. وبعثت فريقا من القياديين لمدنى للتحقيق معى، مكونا من الاخوة المرحوم قاسم أمين والمرحوم الوسيلة والرشيد نايل.. على ماأذكر.. وقد ساندت لجنة المديرية موقفى، فالقرار كان قرارها. فأعضاؤها هم الذين عانوا مشكلة قلة ... التفرغين.. وفى الحقيقة، فقد اعتبرت ماجرى من تحقيق شبيها بتمثيلية.. لاسيما وأن القرار بهذا التحقيق لم يصدر من أى من الأجهزة القيادية فقد كنت عضوا فيها جميعا. - بوصفى المسؤول السياسى للجنة المديرية - ما كنت أستطيع أن أفهم أننى أعمل لتصفية هذه الحركة.. إن اصرارنا على المطالبة بزيادة عدد الكادر المتفرغ ليساعد فى دعم العمل وتطويره يمثل فى حد ذاته تصميما جادا على تقوية حركة المزارعين وازدهارها...

أما المظهر الثانى من مظاهر صراعى مع قيادة الحزب! فقد كان متعلقا أيضا بحركة المزارعين - ففى يوم ما جاءنى الأخ الأمين محمد الأمين - رحمه الله - يحمل «رزمة» كبيرة من الورق المطبوع، ولما استفسرته قال - انها عرائض الحريات، طلب منا الزميل راشد أن يقوم اتحاد المزارعين بجمع توقيعات المزارعين عليها - فكان تعليقى على ذلك - ان هذا واجب أجهزة الحزب لا اتحاد المزارعين - فالاتحاد تنظيم فئوى مطلبى، ليس سليما تسخيره فى عمل سياسى حزبى. وقد أنشأنا هذا الاتحاد تحت شعار ان حدود عمله تنحصر بين «التقنت وابو عشرين» وقد وجد هذا الشعار قبول كل المزارعين

ومـع اتســاع العمل، ونجاحنا فى الوصول لدوائر ووحدات جديدة، اصبحت هذه المشاكل اكثر حدة، وأضيفت اليها مشكلة حادة جديدة، هى قلة المتفرغين السياسيين، مع هذا التوسع المتزايد فى عمل الحزب.. ولكن يبدو ان مبدأ «الحاجة ام الاختراع» مبدأ علمى سليم.. فقد نجحنا ـ بطريقة غير شرعية ـ فى الحصول على ماكينة رونيو جستتنر جديدة.. وهنا ـ لست أدرى ـ إن كان مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» مبدأ سليماً هو الآخر!؟

وبهـذا الانجـاز ـ العـظيم جدا ـ ذلك الوقت، أصبحنا قادرين على اصدار نشرة داخلية منتظمة، لأعضاء الحزب، وعلى توزيع منشورات الكشف والاثارة بشكل مستمر.. واستطعنا بجمع التبرعات من القادرين، من أعضاء الحـزب، والعـاطفـين عليـه، وبمساعدة المركز، من شراء عربة «جيب» من مخلفـات الحـرب، من شركـة النجم الذهبى، ولكنهـا كانت عربـة هالكة، فاستبـدلنـاهـا بعـربـة «بيبى فورد» صغيرة.. وهذا الانجاز العظيم جدا، والاسطورى، فى «تلك الايام» مكننا من الاتصال والتواصل بصورة افضل.. وهنا تحضرنى واحدة من الطرائف.. لأستطيع استعمال تلك العربة، كان علىّ ان استخرج رخصة قيادة، بعد اجتياز اختبار كان يشرف عليه الملازم اول المرحوم صلاح بشير.. وقد اديت ذلك الاختبار بنجاح، بذات عربة الحزب.. وكـان المرحوم صلاح هذا هو الضابط المسئول المباشر عن متابعة النشاط الشيوعى فى المديرية!

أمـا قضيـة النقص فى عدد المحترفين، فلم نتمكن من حلها بصـورة مرضية ـ وقد كنت أداوم على طرحها أمام اللجنة المركزية، واكثر من الالحاح فى المطالبة بزيادة عدد المحترفين، خاصة وأننى كنت أشاهد عددا من هؤلاء، يقضون اوقات الفراغ، فى شرب الشاى والقهوة، ولعب الشطرنج، فى حلوانى «شناكة» وأذكر فى مرة من المرات، وعندما اشتد الحاحى، فى أحد اجتماعات اللجنة المركزية، انفعل الاخ سكرتير عام الحزب قائلا مامعناه: الا يوجد عمل للحزب غير هذا العمل فى الجزيرة؟! ولا أنسى ان الانطباع الذى تولد فى نفسى ساعتئـذ هو ان الأخ السكرتير العام ربما أصيب بحالة من حالاة الغيرة! فحقيقـة كان اتساع العمل، والنجاحات الباهرة التى تحققت فى الجزيرة، تحظى بأعجاب واستحسان أعضاء اللجنة المركزية، وقاعدة الحزب عموما، لاسيما فى مديرية النيل الأزرق..

بغض النظر عن احزابهم وطوائفهم واوضاعهم الاجتماعية، وعلى اساسه تم بناء وحدتهم واتحادهم.. ولكن الاخوة في الاتحاد ـ تنفيذا للأوامر ـ قاموا بجمع التوقيعات على العرائض، وكان لهذا العمل أثر بالغ الضرر بعملنا وسط المزارعين، وكان في الواقع بداية الانتكاسة لنفوذ الحزب في الجزيرة.. فقد استغلته الأحزاب اسوأ استغلال موضحة لجماهير المزارعين، أن شعار من «التقنت لابو عشرين» ماهو الا تضليل، وان الحزب الشيوعي يريد ان يستغل حركة المزارعين لأهدافه السياسية الخاصة. فظهر الانقسام لأول مرة وسط قيادة الاتحاد، وقادته بعض العناصر الحزبية، التي كانت قد لعبت أدوارا مخلصة في بناء اتحاد المزارعين، من أمثال حامد بلول وعبدالرحيم ابو سنينه وغيرهما.

أما المظهر الثالث من مظاهر هذا الصراع، فكان عندما انتهت احدى دورات الاتحاد، وأجريت الانتخابات التي كانت نتيجتها انتخاب لجنة مركزية، لم يفز فيها الحزب الا بعضوية الأمين محمد الأمين ـ رحمه الله ـ وقلة من اعضائه وكانت هزيمة مؤلمة بحق ـ وفي انتخابات مكتب الاتحاد من داخل اللجنة المركزية انقسم الاعضاء على أساس حزبي صارخ.. قسمين: قسم مرشحه المرحوم احمد بابكر الازيرق وهم الحزب الوطني الاتحادي وآخر مرشحه المرحوم جابر عثمان وهم حزب الامة.. وكان هذا الانقسام الحزبي. في واقع الأمر، من صنع الحزب الشيوعي نفسه.. وعرائض الحريات، سابقة الذكر، تقف شاهدا بجانب أخطاء أخرى..

لقد كان المرحوم جابر عثمان، عضوا في اللجنة المكلفة من قبل الحزب الشيوعي بقيادة نشاط اتحاد المزارعين (فراكشن) وهذا يعني أنه كان محل ثقة الحزب، وكبر سنه فقط هو الذي حال دونه والعضوية كما كان الحال بالنسبة لعدد من قيادات المزارعين وأمثاله ـ أما المرحوم احمد بابكر الأزيرق فقد كان رئيس هيئة المزارعين، التي أسستها إدارة المشروع الانجليزية، والتي قام على انقاضها ـ بعد صراع مرير اتحاد المزارعين.. وقد لقى المرحوم الازيرق شخصيا خلال الكفاح لقيام الاتحاد انتقادا شديدا، وهجوما عنيفا ـ كانت قرية ود النعيم قرب مدني هي موطن الشيخ الازيرق وهي منطقة نفوذ اتحادي. وكان الازيرق من أبرز قادة الحزب الوطني الاتحادي في منطقته بل وعلى مستوى الجزيرة كلها وكان رجلا ميسور الحال ـ فهو بجانب ما حظى به من امتيازات كرئيس لهيئة المزارعين، كان تاجرا كبيرا في ودمدني عاصمة المديرية.

أمـا المـرحوم جابر عثمان، فهو واحد من المزارعين العاديين، يقطن القسم الخـاضـع لنفـوذ الأنصـار فى بلدته الكاملين ولهذا فهو من عائلة انصارية، وتقليديا فهو ينتمى لحزب الأمة..

كان لأعضـاء الحـزب فى اللجنـة المركـزية لاتحاد المزارعين صوت ترجيحى لأحـد المـرشحـين ـ فجاء توجيه قيادة الحزب بالتصويت بجانب الشيخ الازيرق على اعتباره مرشح الحزب الوطنى الاتحادى ـ وهو الجانب «الوطنى» بينما جابر عثمان مرشح حزب الأمة «حزب شبه الاقطاع الرجعى» وكنتيجة لهذا الموقف فاز المرحوم احمد بابكر الازيرق برئاسة الاتحاد لأول مرة وكنت وقتها بمصر.

لقد كان هذا الموقف رأيى خطأ جسيما، ويمثل اضافة خطيرة لأخطاء القيادة «المعزولة» تجاه المزارعين ـ لقد كان موقفا نظريا «نصوصيا» ممعنا فى الخطأ، مهملا الواقع العملى والحقائق الموضوعية..

إن لمزارعي الجزيرة، جميعهم، انتماءاتهم الحزبية والطائفية والقبلية ولكنهم لم يتأثروا بجميع هذه الانتماءات، وهم يقبلون قيادة الحزب، التى لا تخـطئها العين، فى حركتهم الجماهيرية العظيمة لتكوين اتحادهم والنضال المتحـد من أجـل مصـالحهم ـ برغم كل المحـاولات التى بذلتها الاحزاب والطوائف وزعماء القبائل، وبرغم تسخير الدولة، وأجهزة أعلامها، فى أواخر أيـام الاستعمـار، وبـداية عهد الاستقلال.. لقد انحازت جماهير المزارعين وقياداتهم تماما لمصالحهم الحياتية، ولاتحادهم سلاحا لتحقيق تلك المصالح ـ وقد برز فى ذلك النضال العظيم قادة من المزارعين مخلصون، وكان من بين هؤلاء المرحوم جابر عثمان، الذى تم اختياره نائبا لرئيس الاتحاد، ولم يكن هذا الاخيـار اختيارا «عبطيا» اوعشوائيا.. ولكنه كان للصفات النضالية والاخـلاص الذى اتصف به المـرحوم جابر.. وكما سبق لى أن ذكرت، فقد اخترناه عضوا فى لجنة «الفراكشن» وهى لجنة محل ثقة الحزب فى قيادة الاتحاد...

ومن الجانب الآخر كان الشيخ احمد بابكر الازيرق ـ طيب الله ثراه ـ رئيسا لهيئة المزارعين التي كونتها ادارة المشروع، وظلت تأتمر بأوامرها ولا ترعي غير مصالح وامتيازات اعصائها ـ وقد ناضل مع هيئته نضال المستميت هو وزميله شيخ الوالي ضد قيام الاتحاد، واصبحت شخصيته فيما بعد تمثل الموقف المعادى لحركة المزارعين ومصالحهم.

لهذا اعتبرت الموقف من هذه الانتخابات موقفا خاطئا - وهو موقف لم يغير ادني تغيير من موقف الحزب الوطني الاتحادى من حركة المزارعين.. فقد ظل موقف هذا الحـزب موقفا معادٍ لحركة المزارعين واتحادهم لاسيما وانه الحزب الذي تبوأ السلطة في اول العهد الوطني.
فلا نحن بذلك المـوقف كسبنـا مسـاندة هذا الحزب، ولا نحن حافظنا على مصداقيتنا بالبعد عن تسخير حركة المزارعين واتحادهم لاهداف سياسية حزبية.

هذه كانت، في واقع الامر، سياسات تصفية حركة المزارعين، وقد أتت هذه السياسات اكلها فاضمحل، الي ابعد مدى، نفوذ الحزب وسط هذه الحركة، وحل محل وحدتها وتضامنها وتماسك قياداتها، التشتت والانقسام الحزبي الطائفي البغيض.

حتي هذا الوقت، لم اعالج هذا الخلاف والصراع، باكثر من ابراز وجهة نظرى في الاجتمـاعـات الحزبية تمسكا وانضباطا بقواعد العمل الحزبي. ولكني كنت اشعر حقيقة ان هذه الخلافات كانت تباعد تدريجيا بيني وبين قيادة الحزب.. وكنت احس حقيقة بالمعاناة وانا مضطر لتنفيذ سياسات لم اعـد مؤمنا ومقتنعا بها التزاما بمبدأ الديمقراطية المركزية، الذي كثيرا ما تسمح القيادة لنفسها بالخروج عليه!

لم تكن هذه الخلافات قاصرة وحسب، على السياسات الخاصة بالعمل بين المزارعين.. مع انه كان طبيعيا ان يكون معظمها كذلك.. ولكنها امتدت لاختلافات حول سياسات الحزب عموما - وهنا اذكر الخلاف حول الموقف من اتفاقية الحكم الذاتي في فبراير سنة ١٩٥٣ ...فقد كان رأي القيادة ان هذه الاتفـاقيـة لا يمكن ان تحقق حرية السودان لان هذه الحرية لا يمكن ان تتحقق الا عن طريق ثورة دموية!! وللحق فان القيادة بذلك الموقف، وجدت نفسها معزولة تماما، لان جماهير الاعضاء بفطرتها تجاوبت مع بهجة اهل السودان بتلك الاتفاقية وبما تحقق لها من حرية وإجلاء للنفوذ الاجنبي.. كما اني اذكر الفلسفة التي اعتمدها سكرتير الحزب في تبرير التعاون بين الحزب وحزب الامة في - الجبهة الاستقلالية - اذكر انه قال في اجتماع للجنة المركزية أنه بعد الاستقلال يمكن ان تصبح اكثر الفئات رجعية ذات توجه وطني لانها تكون قد تحررت من نفوذ الاستعمار وضغوطه. وكنت واحدا من الذين وقفوا ضد هذا التحليل الذي اعتبرته انحرافا خطيرا - واذكر ان الاخ التيجاني الطيب اتخذ ذات الموقف



* الضباط الثلاثه لاتحاد مزارعى الجزيرة المرحوم الامين محمد الامين في الوسط والى يمينه المرحوم جابر عثمان .



* المرحوم الامين محمد الامين والمؤلف .

مكتب الحزب الشيوعي بمصر

كنتيجة لهذا الجهد الشاق المتواصل الذى امتد لاكثر من خمس سنوات، دون توقف، اصبت بحالة من الارهاق العام، واصبحت دائم التردد على الاطباء في كل من ودمدني والخرطوم، فتقرر سفرى مستشفيا للقاهرة... وبجهد جهيد استطاع الرفاق ان يجمعوا مبلغ اربعين جنيها - عل ما اذكر - وتبرع الصديق المرحوم محمود محمد على بشراء «البدلة» الوحيدة التي اخذتها معي لزوم المظهر اللائق!..

وقبل سفرى تمت مناقشة لاوضاع الشيوعيين السودانيين بمصر عموما، والطلاب منهم بشكل خاص، وذلك على ضوء حقيقة انتماءاتهم لتنظيمات شيوعية مصرية متعددة ومتصارعة... وكان الرأي الذي تم التوصل اليه بعد هذا النقاش، انه لابد من توحيد هؤلاء الشيوعيين السودانيين في مكتب تابع للحزب الشيوعي السوداني حتي لا تتعرض وحدة الحزب لخطر الانقسام عندما يعود هؤلاء لوطنهم وهم متصارعون مختلفون!! وقد كلفني الحزب بالقيام بهذه المهمة.

سافرت لمصر في حوالي منتصف مارس ١٩٥٧م، وكان والدي - رحمة الله عليه موظفا بسفارة السودان، واقمت معه بالقاهرة لعدة ايام، ثم فارقته لاتفرغ للقيام بمهمتي، فما كنت اريده ان يعرف طبيعة تلك المهمة، وبدأت التحرك لانجاز المهمة... فاتصلت اول ما اتصلت بالاخويين احمد نجيب وعبد العزيز عبد الكريم - رحمه الله - وكانا طالبين بكلية الطب بجامعة القاهرة، فرحبا بي وتحدثت معهما حول مهمتي، واتصلت عن طريقهما بالاخوة فاروق ابوعيسي وعابدين شرف وآخرين كانوا طلبة بجامعة الاسكندرية... وعقدت عددا من الاجتماعات مع هؤلاء الطلبة الشيوعيين، وشرحت لهم مهمتي، ولم اجد صعوبة في اقناعهم.. فتحركنا سويا، وكان على ان اتصل بجميع المنظمات الشيوعية المصرية السرية، لاقناع قياداتها بالموافقة على ان يترك الشيوعيين السودانيين عضويتها، وينضمون لعضوية مكتب الحزب الشيوعي السوداني للاسباب التي توسعت في شرحها لهم، وكانت مقتنعة، فوافقوا جميعهم على الطلب، وبهذا تم تكوين المكتب.. واذكر من الذين كان تعاونهم عنصرا فعالا المناضلين بحق تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن

كان لابد ان يتم هذا العمل بسرية كاملة برغم الهدنة المعقودة بين الرئيس جمال عبد الناصر والشيوعيين ذلك الوقت ولهذا فقد اسست - بغرض التمويه - مكتبا بعمارة سينما اوديون بشارع سليمان باشا - تحت اسم «توزيع جريدة الجهاد» الت[illegible] كان يد[illegible] الد[illegible] الخر[illegible] وظل[illegible] اول

المهمة من هذاا المكتب - لا ادرى ان كان ذلك التمويه قد فاق مقدرات المخابرات المصرية، وهى مخابرات مشهود لها بالكفاءة العالية.

لقد حقق تكوين هذا المكتب وحدة تنظيمية للعناصر الفاعلة من الشيوعيين السودانيين بمصر، ووضع بهذا الاساس لوحدة فكرية في طور التكوين، تكون سياجا لدعم الوحدة المرتجاه... لقد استغرق هذا الجهد حوالي الثلاثة شهور... ولست انسي ما وجدته في هذا العمل من مساعدة وعطف من الاخوة احمد نجيب وعبدالعزيز عبدالكريم رحمه الله.. وتاج السر الحسن وجيلي عبدالرحمن وبابكر عبد الرازق والطيب ميرغني شكاك وغيرهم في القاهرة وفاروق ابو عيسي وعابدين شرف وصالح محمد عبدالله ومدني احمد عيسي وغيرهم في الاسكندرية - فقد تقاسمت مع هؤلاء جميعا «النبقة» فقد كنا جميعنا «فقراء» حقا!! لقد شعرت انني استفدت كثيرا من فترة بقائي بمصر، ومن المناقشات التي اجريتها مع الاخوة المصريين. المشهود لهم بالباع الطويل في هذه المناقشات النظرية..

واخيرا كان لابد لي ان اهتم بحالتي الصحية، التي كانت في الواقع الدافع الرئيسي من حضورى لمصر - وبمساعدة الاخ عابدين شرف، الذي كان طالبا بكلية الطب بجامعة الاسكندرية وقتذاك، عرضت نفسي على احد الاساتذة، الذي قرر بعد الكشف عليّ - اجراء عملية استئصال الزائدة الدودية. وقد تم ذلك بمستشفي «ناريمان» الحكومى، وتحت عناية ورعاية الاخ عابدين شرف الذي شملني بهذه العناية الصحية حتي بعد خروجي من المستشفي - هكذا كانت العلاقات قديما علاقات زمالة حقيقية، نابعة من عادات وتقاليد اهلنا الطيبين في المسيد والبركل، وفي كل بقعة من بقاع ارض سودانا الحبيب.

استئناف الصراع

بعد فترة وجيزة من خروجي من المستشفي، ولم يلتئم جرحي بعد، وصلت برقية من الخرطوم، تطلب رجوعي فورا. ولما رجعت علمت ان السكرتارية المركزية، قررت ان اتسلم اعباء المسئول التنظيمي بعد سفر الاخ. ابراهيم زكريا لاوربا.. واذكر انه اثناء ذلك كان الاخ المرحوم عبدالخالق

مكتب الحزب الشيوعي بمصر

كنتيجة لهذا الجهد الشاق المتواصل الذى امتد لاكثر من خمس سنوات، دون توقف، اصبت بحالة من الارهاق العام، واصبحت دائم التردد على الاطباء في كل من ودمدني والخرطوم، فتقرر سفرى مستشفيا للقاهرة... وبجهد جهيد استطاع الرفاق ان يجمعوا مبلغ اربعين جنيها - عل ما اذكر - وتبرع الصديق المرحوم محمود محمد على بشراء «البدلة» الوحيدة التي اخذتها معي لزوم المظهر اللائق!..

وقبل سفرى تمت مناقشة لاوضاع الشيوعيين السودانيين بمصر عموما، والطلاب منهم بشكل خاص، وذلك على ضوء حقيقة انتماءاتهم لتنظيمات شيوعية مصرية متعددة ومتصارعة... وكان الرأي الذي تم التوصل اليه بعد هذا النقاش، انه لابد من توحيد هؤلاء الشيوعيين السودانيين في مكتب تابع للحزب الشيوعي السوداني حتي لا تتعرض وحدة الحزب لخطر الانقسام عندما يعود هؤلاء لوطنهم وهم متصارعون مختلفون.. وقد كلفني الحزب بالقيام بهذه المهمة.

سافرت لمصر في حوالي منتصف مارس ١٩٥٧م، وكان والدي - رحمة الله عليه موظفا بسفارة السودان، واقمت معه بالقاهرة لعدة ايام، ثم فارقته لاتفرغ للقيام بمهمتي، فما كنت اريده ان يعرف طبيعة تلك المهمة، وبدأت التحرك لانجاز المهمة... فاتصلت اول ما اتصلت بالاخويين احمد نجيب وعبد العزيز عبد الكريم - رحمه الله - وكانا طالبين بكلية الطب بجامعة القاهرة، فرحبا بي وتحدثت معهما حول مهمتي، واتصلت عن طريقهما بالاخوة فاروق ابوعيسي وعابدين شرف وآخرين كانوا طلبة بجامعة الاسكندرية... وعقدت عددا من الاجتماعات مع هؤلاء الطلبة الشيوعيين، وشرحت لهم مهمتي، ولم اجد صعوبة في اقناعهم.. فتحركنا سويا، وكان على ان اتصل بجميع المنظمات الشيوعية المصرية السرية، لاقناع قياداتها بالموافقة على ان يترك الشيوعيين السودانيين عضويتها، وينضمون لعضوية مكتب الحزب الشيوعي السوداني للاسباب التي توسعت في شرحها لهم، وكانت مقتنعة، فوافقوا جميعهم على الطلب، وبهذا تم تكوين المكتب.. واذكر من الذين كان تعاونهم عنصرا فعالا المناضلين بحق تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن

كان لابد ان يتم هذا العمل بسرية كاملة برغم الهدنة المعقودة بين الرئيس جمال عبد الناصر والشيوعيين ذلك الوقت ولهذا فقد اسست - بغرض التمويه - مكتبا بعمارة سينما اوديون بشارع سليمان باشا - تحت اسم «توزيع جريدة الجهاد» التي كان يد[illegible] الد[illegible] الخر[illegible] وظل[illegible] اول

المهمة من هذاا المكتب ـ لا ادرى ان كان ذلك التمويه قد فاق مقدرات المخابرات المصرية، وهى مخابرات مشهود لها بالكفاءة العالية.

لقد حقق تكوين هذا المكتب وحدة تنظيمية للعناصر الفاعلة من الشيوعيين السودانيين بمصر، ووضع بهذا الاساس لوحدة فكرية في طور التكوين، تكون سياجا لدعم الوحدة المرتجاه... لقد استغرق هذا الجهد حوالي الثلاثة شهور... ولست انسي ما وجدته في هذا العمل من مساعدة وعطف من الاخوة احمد نجيب وعبدالعزيز عبدالكريم رحمه الله.. وتاج السر الحسن وجيلي عبدالرحمن وبابكر عبد الرازق والطيب ميرغني شكاك وغيرهم في القاهرة وفاروق ابو عيسي وعابدين شرف وصالح محمد عبدالله ومدني احمد عيسي وغيرهم في الاسكندرية ـ فقد تقاسمت مع هؤلاء جميعا «النبقة» فقد كنا جميعنا «فقراء» حقا!! لقد شعرت انني استفدت كثيرا من فترة بقائى بمصر، ومن المناقشات التي اجريتها مع الاخوة المصريين. المشهود لهم بالباع الطويل في هذه المناقشات النظرية..

واخيرا كان لابد لي ان اهتم بحالتي الصحية، التي كانت في الواقع الدافع الرئيسي من حضورى لمصر ـ وبمساعدة الاخ عابدين شرف، الذي كان طالبا بكلية الطب بجامعة الاسكندرية وقتذاك، عرضت نفسي على احد الاساتذة، الذي قرر بعد الكشف عليّ ـ اجراء عملية استئصال الزائدة الدودية. وقد تم ذلك بمستشفي «ناريمان» الحكومى، وتحت عناية ورعاية الاخ عابدين شرف الذي شملني بهذه العناية الصحية حتي بعد خروجي من المستشفي ـ هكذا كانت العلاقات قديما علاقات زمالة حقيقية، نابعة من عادات وتقاليد اهلنا الطيبين في المسيد والبركل، وفي كل بقعة من بقاع ارض سودانا الحبيب.

استئناف الصراع

بعد فترة وجيزة من خروجي من المستشفي، ولم يلتئم جرحي بعد، وصلت برقية من الخرطوم، تطلب رجوعي فوراً. ولما رجعت علمت ان السكرتارية المركزية، قررت ان اتسلم اعباء المسئول التنظيمي بعد سفر الاخ ابراهيم زكريا لاوربا.. واذكر انه اثناء ذلك كان الاخ المرحوم عبدالخالق

والنيل من مركزي القيادي في الجزيرة بشكل خاص.

ذكرت ـ قبل قليل ـ ان المقالات التي بعثت بها للنشرة الفكرية الداخلية للحزب لم تنشر وقد مضي على ارسالها وقت طويل، فقررت ان اتخذ خطوة ضاغطة، فقدمت استقالتي من عضوية الحزب، بسبب عدم وجود الديمقراطية داخله، وكان ذلك في حوالي اغسطس ١٩٥٧م ـ كما اذكر ـ فعقد اجتماع للسكرتارية المركزية حضره الاخوة التيجاني الطيب والمرحومان الشفيع احمد الشيخ والجنيد على عمر وشخصي لمناقشة الامر.. ولم يستغرق نقاش الامر وقتا يذكر ـ فقد اكد الاخ التيجاني انهم سينشرون مقالاتي فقررت سحب استقالتي، التي لم تكن في الواقع الا وسيلة ضغط.

وبعد حوالي يومين اتصل بي المرحوم الجنيد قائلا انه لم يعثر على المقالات، فقلت له: لابأس سأعيد كتابتها... فأعدت الكتابة فعلا وتم نشر المقالات.. ولكن مع كل مقال كان ينشر رد على افكاري بتوقيع الاجهزة القيادية ـ باسم السكرتارية مرة وباسم المكتب السياسي واللجنة المركزية مرة اخرى... وكانت تلك الردود تطفح بكل ما في قاموس الفكر الماركسي من تهم الانحراف ـ واذكر ان احدى تلك التهم كانت تشبهني بالمرتد عامر (عوض عبدالرازق)! ولم اكترث لذلك. وكنت مصمما على مواصلة التعبير عن وجهة نظري وكما سبق ان ذكرت، كان قد تم ابعادي من الجزيرة، وحضرت للعاصمة فطلبوا مني ان اتسلم المسئولية السياسية لام درمان ثم تغيرت ام درمان للخرطوم بحرى ثم طلب مني السكرتير العام ان اذهب لبورتسودان لاستلم مسؤولية قيادتها من الاخ عباس عبد المجيد الذي كان اتهامه (بالجمود) متداولا.

في هذا الجو، وفي هذه الظروف الخاصة بعلاقتي بالحزب الشيوعي السوداني، كان انقلاب نوفمبر ١٩٥٨م.. وقد كنت وقت إعلان الانقلاب في ودمدني، اجمع بعض الوثائق من النشرات الداخليه للحزب بالمديرية، لاستعين بها في حواري مع القيادة.. فعقدنا اجتماعاً في منزل المرحوم الدكتور عمر محمد ابراهيم حضره كما اذكر الاخوة حسان محمد الامين ومعاويه ابراهيم وعباس علي وعبد اللطيف محمد بشير وشخصي ـ وكان رأيي في الاجتماع ان يعمل الحزب علي اعلان الاضراب العام والعصيان المدنى فى مقاومة ذلك الانقلاب ـ ولكن الاخوه اعتبروا هذه خطوة كبيرة ولابد من عرض الامر على القيادة، فتقرر سفري والاخ عباس على للاتصال بالخرطوم.. وعندما حضرنا للخرطوم وجدنا ان اجتماعا للمكتب السياسى كان قد تم تحديده وانعقد ذلك الاجتماع بمنزل بحى ودنوباوى لا اذكر اسم صاحبه ـ وفى بداية

خارج البلاد... وان عضوان فقط من اعضاء السكرتارية كانا موجودين ـ هما التيجاني الطيب والمرحوم الشفيع احمد الشيخ... وعندما عاد سكرتير الحزب اعترض على تسلمي مهام المسئولية التنظيمية، بحجة اهمية وجودى في الجزيرة لقيادة حركة المزارعين ـ والتي كنت اسعي لتصفيتها!! ـ هذا ومع الاخذ في الاعتبار، انني كنت عضوا منتخبا في السكرتارية المركزية، وهي القيادة اليومية لنشاط الحزب! ولا ادرى كيف يستقيم وجودى في الجزيرة مع اسهامي في هذه القيادة اليومية؟!

وعلى اى حال فقد اوكلت المسئولية التنظيمية للاخ معاوية ابراهيم لفترة تسلمها منه بعد ذلك المرحوم الجنيد علي عمر.. ذلك ان الاخ معاوية كان قد تقرر نقله لنا في مديرية النيل الازرق.. وسآتي لذكر هذا التطور فيما بعد..

ذكرت ان الفترة التي قضيتها بمصر، والمناقشات الحامية التي اشتركت فيها مع الاخوة المصريين وبعض السودانيين ايضا، وانا اعمل على تكوين المكتب التابع للحزب الشيوعي السوداني، قد افادتني كثيرا، وجعلتني اقرر اتباع اسلوب اكثر جدية في مناقشة آرائي في الحزب.. فقررت الكتابة في «الوعي» وهي المجلة الفكرية الداخلية للحزب، لاسيما وانه في ذلك الوقت، كان قد اعلن عن فتح باب المناقشات حول كل القضايا الفكرية والتنظيمية التي تهم الحزب ـ فكتبت ـ على ما اذكر ـ مقالات ثلاث ومضي وقت طويل دون نشر هذه المقالات.. خاصة وان ما كنت قد اشرت اليه من تحقيقات معي، كانت نتيجتها، ابعادي من المسئولية السياسية لمديرية النيل الازرق، وتحويلي للعاصمة... واعتقد ان الاخ معاوية قد تسلم المسئولية من بعدى!

منذ وصول الاخ معاوية للعمل مسئولا تنظيميا بالنيل الازرق، خلفا للاخ عبد الحليم عمر ـ الذي سافر لمواصلة دراسته بالاتحاد السوفيتي ـ حدث تغيير كامل لجو العمل الرفاقي، الذي كنا حريصين عليه في قيادة المديرية ـ وحل محله التوتر الشديد والصراع فيما يستحق وما لا يستحق، بيني وبين الاخ معاوية، الذي كنت قد جندته لعضوية الحزب عندما كنا طلبة بالمدرسة الاهلية الثانوية عام ١٩٤٧م... ومن العجيب حقا ان الاخ معاوية والاخ عثمان «الشايقي» وشخصي، كنا ثلاثتنا قد حكم علينا بالسجن خمسة واربعين يوما بود مدني، بعد تنظيمنا مظاهرة تأييدا لثورة العراق بقيادة عبد الكريم، قاسم، وفي داخل السجن امتد الصراع بيننا لدرجة انني والاخ معاوية بدأنا بالفعل استعمال الايدى في ذلك الصراع، ولولا تدخل الاخ عثمان الشايقي لحدث ما لا تحمد عقباه ـ كل هذا جعلني اوقن بأن الاخ معاوية ما ارسل لود مدني الا بغرض تعويق نشاط الحزب في المديرية عموما،

ذلك الاجتماع اعلن سكرتير الحزب وقف المناقشات العامة الداخلية على اعتبار ان الحزب يدخل صراعا، سيكون شاقا، ضد الديكتاتورية العسكرية وان هذه المناقشات تضعف وحدة الحزب وتماسكه.. ووافق المجتمعون - اجماعا - على هذا القرار.. وقد جرت بذلك العادة!! ولكن هذا القرار كان بالنسبة لى وضع حد نهائى لعلاقتى بالحزب، هذه العلاقة التى تمسكت بها - رغم كل المعاناة - على أمل واحد.- هو ان أجد فرصة التعبير عن وجهة نظرى، وقد اضمحل الآن تماما هذا الأمل، فى ظروف تفرض على العضو اكثر من أى وقت مضى تضحيات، يصبح من غير المعقول تحملها بدون قناعات فكرية كاملة، وايمان كامل بواجبات النضال. فقررت الاستقالة من عضوية الحزب، دون رجعة هذه المرة.. وأذكر أننى كتبت مقالا بجريدة الايام كان هدفى الأساسى منه هو ألا أتحمل مسئولية مواقف وسياسات لم أعد ملتزما بها... كان ذلك فى حوالى يناير سنة ١٩٥٩م على ما أذكر-

ثم كان سيل الاتهامات مرة أخرى، بالجبن والانتهازية والبوليسية الى غيرها فى القاموس المعروف من اتهامات.. تناسوا كل هذا السجل الحافل بالصراع، الذى أبنت تفاصيله، وحصروا الموضوع فى موقفى من الحكم العسكرى، و فى مواجهة هذا الحكم، وكانوا - حقيقة - فى كل ذلك غير منصفين.. بل ان المهووسين منهم طلبوا من زملائهم مقاطعتى لدرجة ان واحدا من هؤلاء القياديين عندما هممت بمصافحته فى مكان عام، رفض أن يصافحنى قائلا باللغة الانجليزية مامعناه، أن لينين قال: «لابد من خط فاصل يميز بين الثورية والانتهازية» وأذكر أننى قلت فى الرد عليه وأنا أبتسم «هل حسبت « يازميل» أن هذا الخط الفاصل الذى تحدث عنه لينين هو حائط يبنى ليفصل بين الناس؟ كلا فهذا الخط الذى يعنيه لينين هو كشف الأفكار الانتهازية حتى يتسلح ضد تأثيرها الضار الثوريون الحقيقيون!! إنها واحدة من الشواهد العديدة على انفصال وانفصام ممارسات الحزب عن عادات وتقاليد أهلنا فى السودان، وهذا سبب من أسباب ما ظل يعانى منه الحزب من انعزال، وفقدان للكوادر وتكريس لروح العداء والبغضاء..

عندما تركت عضوية الحزب الشيوعى، كان ذلك محل أسف بعض الاخوة، الذين تبادلت واياهم الثقة والاحترام... ومن هؤلاء الاخ الجزولى سعيد، الذى زارنى بمنزل أحد أقاربى بحى البوسته بام درمان، وكان حديثه معى منصبا على محاولة اقناعى بالبقاء فى عضوية الحزب، وذلك من منطلق

الثقة المتبادلة ـ فكان ردى أننى لا أمانع فى ذلك، بل وسأقبل العمل عضوا عاديا فى أى خلية من الخلايا، بشرط واحد ـ هو كفالة استمرار المناقشة داخل الحزب، ونشر ما اكتبه من آراء.. وفى اى وقت يأتينى الأخ الجزولى بالموافقة على هذا الشرط، سأستأنف نشاطى فورا.. وقد أبدى الأخ الجزولى اقتناعه بوجهة نظرى، ووعد بالاتصال بى.... ولكنه ذهب ولم يعد حتى الآن!... ولو عاد الآن لوجد أن الأمر قد تغير كثيرا!

فى «تلك الأيام» ـ التى مهما قلت عنها الآن ـ فقد كانت بالحق مليئة بالتضحية والايثار، ولم تكن وقتها أغرارا، أو صبية صغاراً، فان تغيرت الآن القناعات والمفاهيم، أو تطورت، فهو أمر طبيعى، طالما لم يكن ذلك بتأثير السعى وراء المنافع الذاتية الانانية، والتخلى عن الاخلاق والمثل.. فى تلك الايام تعرفت على بعض الشخصيات، التى ستظل عالقة بالفكر والوجدان معا ـ لأنها كانت شخصيات متبتلة غارقة فى بحر ما آمنت إنه المصلحة العامة، وفقا لقناعاتها.. وهل هناك من عمل عام دون قناعات؟ الا بالنسبة للعملاء والمأجورين؟! ومن تلك الشخصيات وهم كثيرون ـ الاخوة الجزولى سعيد وعباس عبد الحميد والمرحوم جعفر أبو جبل ومحمد سعيد وعبد اللطيف محمد بشير وعبد الرحمن. وعبد الحليم عمر وحسن سلامة وغيرهم وغيرهم كانوا متصوفة العمل العام..

خاتمة المطاف

* * * * * * *

واضح مما قدمت فى هذا الفصل، انه ليس دراسة لتاريخ الحركة الشيوعية فى السودان، وما أردت له أن يكون ـ لكنه ـ كما قدمت ـ تبيان لتجربة انتمائى لهذه الحركة.. وقد رأيت أن أطرح تلك التجربة، وفقا لقناعاتى الفكرية خلالها.. وهو ـ فى رأيى ـ أسلوب فى الطرح تمليه الأمانة والموضوعية ـ وهو ذات الأسلوب الذى تقيدت به وأنا أبدى ـ خلال التجربة ـ انتقاداتى ورأيى المخالف..

وكل أملى ان يكون مجمل تسجيلى لتجربتى «تلك الأيام» نافعا للناس، ليتصل به ـ كما سبق وذكرت ـ مشوار عطائى فى العمل العام..

★★★★ كامل محجوب ★★★★

الخميس ١ ديسمبر ١٩٨٨م ـ الموافق ٢٢ ربيع الثاني ١٤٠٩هـ

الخرطوم

هــذا الكتــاب

● انــه تسجيل لفترة من تاريخ السودان ازدحمت بالاحداث وكان طبيعيا ان يبرز هذا الرباط الوثيق بين تجــارب المؤلــف الذاتية وهــذه الاحــداث برغــم حرص صاحب الكتاب علي الا يكون هذا العمل سيرة ذاتية . ولكن برغــم ذلك فان هــذا الكتــاب يعتبر تدوينا صــادقا وامينا لاحداث تلك الفتره من نضــال شــعب السودان من اجل التحرر والاســتقلال ذلك النضال الذي اشــتركت فيه كــل فئات الشــعب طلابــا وعمــالا ومعلمين وتجارا وزراعا وخريجين .

لقــد حرص المؤلف علي ابراز ادوار المناضلين من ابناء السودان وسط كــل تلك الفئات . انــه الجــزء الاول مــن « تلك الايام » والامل معقــود علي تتابع بقية الاجزاء .

صمم الغلاف الفنان ابراهيم العوام نمر

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري

إخـــراج إلكتروني : ابوبكر خيري